الدكتور موسى الخطيب

طريقك إلى القمة

كيف تُفكّر وتُبدع؟

مكتبة الأصدقاء



تقديم

لقد أصبح عالم المعرفة بعيداً عن نطاق الطرق القديمة وكما يقول سكينر النفسانى الأمريكى مخترع التعليم المبرمج ورائده : « إن العالم شديد الاتساع والمدرسة شديدة الضيق » وسوف تكون إحدى مهام الغد أن نصالح الشباب مع المعرفة وأن نهيئه عن جدارة للدنو من العالم الواسع بحيث تكون لهم رؤوس « أفضل صنعا » إن لم تكن أكثر امتلاءً .

وما نجح الذين نجحوا ، ما حازوا قصب السبق إلا بالكد ، بالتفكير بأعمال المخيلة ، بالسهر الطويل .

فالمفكرون ينجحون دائماً بشكل أفضل من غيرهم .

وفى عالمنا المعاصر .. هناك ملايين من الرجال والنساء يتلهفون على تلقى الدروس فى فن التفكير ، وهناك لفيفاً غيرهم من الرجال والنساء يجازفون بإظهار القدرة على إعطاء هذه الدروس مهما يكن فيها من خيلاء !! .

فليس من الضرورى أن يتسم من يُقدم على هذا العمل بالعبقرية ، ذلك أن العبقرية لم تكن فى الحسبان قط ، إنها المعلم الصالح لأى فن من الفنون ، ومن ثم فمن الخير ألا يكون معلم فن التفكير شخصاً لا يعرف أى صعوبة فى التفكير ، أو يبهر الناس بروائع أفكاره التى من شأنها أن تُشعر قليل الخبرة بضآلة تفكيره فتثبط من عزيمته . والواقع أن الطبيب الرقيق قد لا يصلح لأن يكون مثلا أعلى للصحة على حين يستطيع أى شخص عادى أن يكون مثلا أعلى على ذلك . صحيح أن الطبيب يمكن أن يقدم الطريقة المثلى فى الاستخدام الذكى البارع لرصيد صغير من الصحة والعمل على زيادته ، مع ذلك فإننا نعرف أنه يستطيع أن يكون أكثر نفعاً بسبب تفهمه للصحة المعتلة ، وتقديره لعلم الصحة ، ومن ثمة فنحن دائماً نؤثره على غيره . ثم أليست الرغبة الصادقة فى أن يكون المرء نافعاً مبرراً كافياً ليقوم بإسداء نُصحه المتواضع ؟! .

إن هذا الكتاب ، على الرغم مما يشوبه من قصور ، فإنى أتصور أن له بعض الخصائص التى قد يهملها أى كتاب جديد تماما ، وهذه الخصائص هى بدقة حماسة الشباب ، ومعالجته للفكر كمغامرة عظيمة ، وكرحلة جريئة للاستكشاف أدعو القارىء إلى المشاركة فيها . ولقد كنت فى البداية أرغب فى تدريب نفسى على كيفية التفكير بطريقة أكثر فعالية وأكثر استقلالا وأكثر أصالة بقدر الإمكان ، ولقد أحسست بالفعل « إن من يدرس يتعلم » .

وكنت مصمماً على أن أكون أميناً مع القارىء إلى أقصى حد ، فقد كُتب هذا الكتاب من أجله مع ما يتسم به من جهد فى الوضوح والإيجاز ، وعزوف عن اللغة الفلسفية العصيّة ، وهى أمور تضيع جميعها من رغبة صادقة لإسداء العون لا لإثارة الإعجاب .

ولا يستطيع أحد أن يقرأ الكتاب ، دون أن يفطن إلى أن الترهل الفكرى والتواكل الطفيلى على الآخرين ، وبلادة حاسة الذوق الفنى ، وما يماثل هذا من عيوب خلقيه ، تسبب من النقائص أكثر مما تسببه ضروب العجز التى يتضح أنها ناشئة عن أصل غير وجدانى ، وإذا كان ثمة قوم قد حالفهم الحظ حتى أصبحو فى غير حاجة إلى أية نصيحة من نصائح المؤلف - فإنى على ؛ الرغبم من هذا ؛ أحفزهم لمطالعة الكتاب بغية التعرف على محتواه الجاد وكفى .

وإذا كنت قد أوصيت قارئى الكريم بمطالعة هذا الكتاب ، فإنى أريد من قارئى أن يكون مكملا لى لا مؤمنا بى ... ينهض ليبحث معى ولا يكتفى بأن يتلقى عنى .. إن مهمتى هى فى تحريك الرؤوس .. فالكاتب مفتاح للذهن يُعين الناس على اكتشاف الحقائق والمعارف بأنفسهم لأنفسهم ..

فكرٌ ياصاحبى تفكيراً مبدعاً ، ونحن معك من خلال هذا الكتاب نمد لك يد العون فى جهادك للوصول إلى قمة الحسن من تفكيرك ، وذروة النجاح فى حياتك . إن الحياة إذا خَلَت من التفكير خَلَتْ من النجاح .

فكرٌ ياصاحبى ، لأنك لن تكون إنساناً .. والترهّل الفكرى والتواكل على الآخرين وبلادة الحس ديدنك !! .

فكرٌ ليرتفع رأسك .

فكرٌ لتعلو جبهتك .

فكرٌ ليقولوا عنك باحترام وتقدير .
هذا رجل ناجح ... هذا إنسان .

والآن هيا إلى صفحات الكتاب

المؤلف

د/موسى الخطيب

مدرس بطب الأزهر

* * *

الفصل الأول

ماذا يعنى التفكير ؟

ماذا يعنى التفكير ؟

منظر مألوف ، فى أصيل ذات يوم ، والشمس تؤذن بالمغيب مرسلة أشعتها الذهبية فوق الحديقه المحمره ، وأنت واقف فى رضفة الباب ، أو فى شرفة منزلك ... أو فى الحقل ... تنظر إلى بعيد ولا تبصر ، مستغرقاً فى التفكير .. يتسلل إلى هدأتك شخص ما عن كثب ويُلقى على مسامعك هامساً بهذه الكلمات : « خذ ... جنيه وقل لى بتفكر فى أيه » أو يقول لك غامزاً بطرف عينه ، وبخفة دم مصريه لا تخلو من دهاء « اللى واخد عقلك يتهنى به » .. وهو يقصد أنك تفكر فى حبيب لك طال أنتظاره .

وفى وقت متأخر من اليوم ، هاآنت تطالع فى كتاب وتبدو مستغرقاً فى التفكير يكشف عن ذلك وجهك الذى لا يبدو كما يبدو عادة حين تحس السعادة فيما تقرأ ؛ أما جبهتك المتغضنة فتكشف عن استغراق مُسْرِف ، يزيد فى سرفه على ما تستلزمه مجرد المطالعة ، والواقع أنك ناء قصى ، وفى إجابتك عن السؤالين « فيم تفكر ؟ وأى كتاب هذا ؟ » لن تختلف قط عما قلته حين نزل عليك صاحبك فى أصيل هذا اليوم وقد انطلقت من يقظتك إلى وادى الأحلام : « أوه ! لست أفكر فى شىء » أو « إنى فكرت فى كل شىء » ومن المؤكد أنك كنت تفكر فى أشياء كثرت إلى حد أنك كنت كمن لا يفكر فى أى شىء ، إذن لقد خطر ببالك فى وقت ما أن تفكر ، وبالطبع لقد «فكرت» بمعنى من المعانى . فالتفكير يعنى طائفة متنوعة من الأشياء . ولكنى عندما أستخدم كلمة تفكير هنا ، فإنى أعنى التفكير بغرض ، أى للوصول إلى نهاية منتظرة ، أعنى التفكير فى حل مشكلة ما !، بيد أنى لا أعنى التفكير فى «نتف» أو أخذ فكرة بسيطه عن هذا الموضوع أو ذاك ، بل أعنى التفكير فى مسائل ذات معنى تقع خارج حدود رفاهيتك .

وتعتمد التربية – بما أحرزته من نجاح فى التدريب – على التفكير الناقد وتنميته ، ونحن لانشك فى أن التفكير الناقد يعدّ جزءاً جوهرياً من عملية التفكير ، ولكنه – فى الوقت نفسه – ليس كل التفكير ، ومن هنا ، يتبين لنا أن التفكير التقليدى المعروف يتطلب وجود نوع آخر جديد من التفكير ، وهو التفكير

التوليدى (Generative thinking) – الذى يفتعل الأحداث ، ويصطنع المشكلات ثم يبادر إلى معالجتها والتفكير فى إيجاد حلول ملائمة لها – وهذا النوع من التفكير يعتبر عملياً ، يمكن تطبيقه فى الواقع ، وهو تفيكر مبدع خلاق ، ويمكنّ المفكر من التعامل مع الواقع الذى يحيط به ، حتى لو كانت المعرفة أو المعلومات المتوافرة عن المسألة التى يجرى التفكير فيها ناقصة ، ولا تعطى صورة دقيقة عنها .

وعلى هذا ، فإن الإنسان الذى يكتسب هذا النوع من التفكير ، يستطيع أن يواجه المشكلات التى تعترض سبيله ، وأن يباشر معالجتها ، دون أن ينتظر حتى تتوافر بين يديه جميع المعلومات التى تتعلق بالمشكلة ، فتوفيرها غالباً ما يكون متعذراً ، وربما يكون طلب الحل أمراً لا يحتمل الإرجاء أو التسويف ، ومن ثم فإننا نهيب بالتربية أن تولى عنايتها واهتمامها «بالتفكير التوليدى» دون أن تهمل التفكير الناقد ، والتفكير الذى يقوم على تحصيل المعرفة .

ويخلص «دى بونو» إلى تعريف التفكير بأنه «التقصىّ المدروس للتجربة ، لتحقيق غرض ما» . ويتعدد الغرض الذى يُراد تحقيقه ، تبعاً للواقع المدروس ، فربما يكون الغرض هو الفهم ، وقد يكون اتخاذ القرار ، أو التخطيط ، أو حل المشكلات ، أو إصدار الحكم على الشىء ، أو القيام بعمل من الأعمال ، وما شاكل ذلك من أغراض .

ويصبح التفكير بهذا المعنى هو : « مهارة التشغيل التى يستطيع الذكاء – من خلالها – أن يؤثر فى التجربه » .

هذا النوع من التفكير الذى نادراً ما يحدث الآن – نحن فى أمسِّ الحاجة إليه ..

□ التفكير والشعور :

ويظن البعض أن الشعور الباطني (الإحسا الداخلى) هو الذى يهم الإنسان فى حياته حتما ، وأن التفكير لا يزيد على كونه عبثاً بالكلمات وتلاعبا بها . وقد بنوا ظنهم هذا على أنه يمكن استخدام ما يسُمى بالتفكير المنطقى لإثبات أى وجهه نظر ، وذهبوا إلى أبعد من ذلك حين قالوا : أنه يمكن إثبات الشىء وضده من خلال استخدام التفكير المنطقى .

ولهذا ، فإن هؤلاء النفر يزعمون أن التفوق والظهور فى نهاية الأمر لابد أن يكونا للشعور وحده ، فالشعور – فى عُرفهم – هو الذى يجعل الكائن البشرى

إنساناً . غير أن التفكير ينظم مدركاتنا وخبراتنا ويعيد ترتيبها والتنسيق فيما بينها ، مما يجعل رؤيتنا للأمور أكثر وضوحاً . وهذه الرؤية نفسها هي التي تثير مشاعرنا ، وبذلك يغدوا الشعور – في معزل عن التفكير – عملا استبداديا تعسفيا ، بل ومضللاً في بعض الأحيان .

يروى الدكتور «دى بونو»[1] مثالاً على ذلك : « أن صديقاً له كان يقود سيارته ذات يوم ، فشاهد امرأة مطروحة على الأرض ، وكانت قد صدمتها سيارة أخرى ، وحين هَمّ الصديق لمساعدة المرأة وإسعافها ، مرّ سائق آخر ، فشاهد سيارة الصديق المتوقفه ورأى المرأة المصابة فتبادر إلى ذهنه – لأول وهلة – استنتاج خاطىء ، فترجل عن سيارته ، وانهال على الصديق بالضرب ، ولكمه لكمة كسرت فكه » .

وليس هنالك من شك في عنف مشاعر السائق وعمقها ، وفي صدق انفعاله ، ولكن تفهمه للموضوع كان خاطئاً ، فأدى هذا التفهم الخاطىء إلى توجيه الشعور توجيهاً خاطئاً . ومن هنا ينكشف لنا أن التفكير الصحيح يهيء الإنسان للشعور الصحيح ، ويتبين لنا أيضاً أن الشعور كثيراً ما يكون خاطئاً ومضللاً إذا كان بمعزل عن التفكير .

على أن النزعة الغالبة بين الناس عادة ، تتمثل في إصدار الأحكام الفورية المبنية على الشعور واللجوء – من ثمّ – إلى استخدام ذكائهم لدعم هذه الأحكام وتأكيدها . ولذلك يصبح لزاما علينا منذ الخطوة الأولى في تعليم التفكير – أن نوفر الوسيلة الملائمة التي تجنّبنا إصدار مثل هذه الأحكام الارتجالية ، فنطلب من المفكر أن يولى عنايته لجميع النقاط المهمة التي تتصل بالموقف ، وأن يقوم بدراسة هذه النقاط دراسة متأنية قبل أن يشرع في اتخاذ قراره أو إصدار حُكمه . إن هذا الأسلوب من التفكير يساعد على تغيير المشاعر وتبديلها بعد تفهّم الموقف الطارىء تفهماً جلياً . وملاك هذا الأمر وجماعه هي الإرادة الموجهة .

☐ ميطر على نفسك :

يجب أن تسيطر على نفسك ، أن تربى في نفسك الإرادة الموجهة . وهذا يتطلب

---

(١) تعليم التفكير : د . إدوارد دى بونو ترجمة د . عادل عبد الكريم ياسين ، إيهاب أحمد ملحم ، وتوفيق أحمد العمرى .

حتما جهداً جباراً ، فالأعداء الداخليه كثيرة وقوية ؛ الغرائز مثلا والمغريات ، الأحلام كلها تتضافر ضد الإرادة ، فإن لم تكن للإرادة غلبة عليها ، أعقب عزيمتها الاستسلام ، وأعقبها الغموض والنطليم .. فراقب نفسك . راقبها بعين لا تغفل ، فالمراقبة هى الخطوة الأكبر فى الصراع مع النفس ! .

إرادتك ملك يمينك .. قل الليلة سأمضى ساعتين فى مطالعة ودرس ، ونفِّذ .. قل إنى سأعمل غداً عملا أرجأته مرات ونفِّذ .. قل إنى لن أدخن اليوم وغداً وبعد غد ونفذ ..

وسترى بعد حين أن مسألة التنفيذ أصبحت طبعاً لأنك غرزت الإرادة فى فكرك وروحك . والإيمان بالإراده ، الإراده المهذّبة الموجّهة .. بها تحقق العجائب .. ومتى كانت لك إرادة صلبة ، لم تعدم الوسيلة .. أجل لا يستحيل شىء على الإراده . وفى الإراده قال النبى ﷺ : « **لو تعلقت همّة أحدكم بالثريا لنالها** » .

وأبلغ مثل على الإرادة «لويس باستير» ذلك العالم العظيم الذى أقام فى أعماقه مثلا أعلى جاهد فى سبيله حتى مكن الحياة من التفوق على ذاتها .

لم يُعرف فى طور العلم وهو صغير بذكاء القلب ، ورجاحة الأحلام .. لم يُعرف بامتياز العقل ، وكان معلمه يقول عنه :

« ولد وديع رقيق ، ولكنه بعيد كل البعد عن الذكاء » .

وكم سمعناه أكثر من مره يقول له زاجراً بعد ما ضيّق عليه الفتى الخناق بأسئلته :

« اضجرتنى ، أضجرتنى . لا تلح ، لا تسأل ، واجبك كتلميذ أن تجيب » .

ولكن بالإرادة حاز الشجاعة ، ونهض فيما بعد بالتبعات الجسام التى شعر أنه مكتوب عليه أن يلتمس طريقه فى خضمّها كانت إرادته هى سلاحه فى جهاده .

ولقد سجل عليه قوله بعد سنين :

« بالإرادة نُفتح مصاريع الأبواب .. بالإرادة نفتح أبواب (التفكير المثمر) ، ونعبر فى رحلة طويلة تتطلب الصبر والإيمان والتشوف .. ولا نعتم أن نصل إلى النجاح ! » .

طلب أبوه له العلم رغم رقه حاله .. بيد أن المرض داهمه فعاد أدراجه إلى بيت أبيه الصغير .. وبعد أن استرد صحته وقوته استأنف مسيرة التحصيل ، ومضى قُدُما حتى بلغ منه غايته وأثبت ما عزمت عليه نفسه بقوله :

« لا أتردد عن التضحية بنفسى إذا دعانى داعى الواجب الذى أشعر به يتكون ويتجسد » .

وتشهده الأيام ينكبّ على أبحاثه الكيميائية ويستغرق فى أبحاثه وتجاربه الساعات الطوال ، حتى أنه فى يوم زواجه تجمعّ الناس وانتظروه .. وانتظرته عروسه .. وتأخر العريس .. وأسرع صديق له إلى بيته فوجده عاكفاً على عمله ، غارقا فى تفكيره بين أنابيبه وقواريره ، فصاح فى غضب : ويحك ! أتنسى اليوم أنك تتزوج ! .

قال : كلا ، كلا .

– فماذا تفعل هنا ، والناس تنتظر .. والعروس تنتظر ؟ .

– ماذا أفعل ؟ أتتوقع أن أترك عملا فى نصفه ؟ .

وصادفه الفشل فى أبحاثه ، وكثيراً ما ذهب تعبه سُدى ، وكلما فشل فكر أكثر وأكثر ، وقضى الأيام والليالى يبحث .. لم ييأس بل تضاعفت حماسته ، اشتدت عزيمته ، وكانت إرادته دائماً فى عنفوانها . وهداه تفكيره المبدع إلى أن يستخدم العلم ليرقى بالإنسانية وينقذ الإنسان .. فتوج حياته باكتشافاته العظيمة وأهمها التعقيم والتطعيم ضد الأمراض ، والتحصين فأنقذ بذلك الملايين من الأمراض السارية ، وأنقذ الملايين من داء الكلب .

~~لقد سخر العلم لمنفعة الإنسان~~ ..

لقد سخّر العلم لمنفعة الإنسان ... وأضحى بإرادته القوية قادرًا على الابتكار والقدرة على الابتكار هى القدر على خلق شىء من لاشىء ، أو خلق شىء رائع من شىء أو أشياء تافهة ، فالابتكار هو الخلق أو الإنشاء وهو من أهم مميزات الإرادة القوية ، بالإرادة القوية أضحى « لويس باستير » من أعاظم الرجال .. وخدم الإنسان والإنسانية وغدا رجل السلام الذى طالما واجه الإهانة بالابتسامة .

وأختتم حديثى عن الإرادة بكلمات للعالم النفسى « جوزيف جاسترو » فى كتابه « **الاتزان الذهنى** »[1]: « ثمة ثلاثة أشياء ذات أهمية كبرى فى تنمية الإرادة : القوة والثبات ، والتوجيه .وأقول القوة لا النشاط ، لأنك قد تجد النشاط فى الأطفال المشاغبين والكبار الغاضبين . وإنما القوة هى النشاط المنظم الإنشائى .

والثبات يعقب المثابرة ، وهو أكثر من الإصرار الذى يتجلى فى الأشخاص المطبوعين بالعناد ، وإنما أعنى الثبات القدرة على معاودة الكرّة بنفس الرغبة الأولى ..

(١) Dr. Joseph Jostrow (Keeping Mentality Fit) .

أما التوجيه فهو تحديد الغرض المنشود ، وتسديد الخطى نحوه . وهذه العوامل الثلاثة : القوة والثبات ، والتوجيه لا تؤتى ثمارها حتى ينقلها من جمال المدركات العقلية إلى مجال العمل . ينبغى أن تعيش بها وتتدرب عليها حتى لتصبح عادة راسخه » .

قواعد لتنمية الإرادة

١ – اعرف نواحى القوة ونواحى الضعف في نفسك .
٢ – اعتن بصحتك .
٣ – ابدأ بصنع الأشياء الهينه الميسوره فى أول الأمر .
٤ – نمّ فى نفسك النشاط الإنشائى .
٥ – نمّ فى نفسك القدرة على الحَسْم .
٦ – توخَّ الوصول إلى قراراتك بوحى نفسك ، وبغير توجيه خارجى .
٧ – جهِّز نفسك للعمل تجهيزاً تاماً .
٨ – خذ على نفسك «كلمة شرف» أن تنجز أعمالاً معينة .
٩ – ضع نصب عينيك أهدافاً محددة واضحة المعالم .
١٠ – راجع مدى تقدمك أولاً بأول .
١١ – اسع إلى خلق المنافسة .
١٢ – ابدأ بتدريب إرادتك فى ميادين العمل التى تمتعك وتلذ لك .
١٣ – اتخذ لنفسك مثلا أعلى من الشخصيات المعاصرة أو التاريخية .
١٤ – تسلَّح بروح الفكاهة والمرح ولكن كن جاداً فى بذل الجهد .
١٥ – أَخْلُ بنفسك بعض الوقت كل يوم وتأمل مدى تقدُّمك .

□ راقب نفسك :

أخطاء الإنسان كثيرة متعددة فى أنواعها ووجوهها ، فمراقبة النفس لمعرفة هذه الأخطاء عمل له فائدة عظيمة .

مراقبة النفس ، ومراقبة الحركة ، ومراقبة الوجه ، وتعابير الوجه ، ومراقبة الكلام .. كل هذا أصبح علما ، بل أصبح مادة أساسية تدرس فى المعاهد ..

ففى بريطانيا مثلا يعلمون الطلبة أصول السيطرة على النفس ، فيتغلب النشء

على عادات رديئة كثيرة ويصبح ميالاً إلى الهدوء والبرود .

يُمرِّنون التلميذ على ضبط مشاعره وأحاسيسه ؛ على عدم الأسترسال فى نزواته ، مما يساعده كثيراً فى حياته العملية بعد أن يشب عن الطوق ! .

فإخفاء العواطف صفة مستحبة تحتاج إلى مران وتجارب .. والاحتفاظ بالهدوء يكسب المرء وقاراً واتزانا ، ويضيف إلى قيمته ... والتحدث ببطء يمكنك من اختيار الألفاظ ، ويمكنِّ غيرك من فهم كلامك .

وهذا فوق ما تقدم يقوى قدرتك فى السيطرة على نفسك ، ويتبع ذلك ارتياح عامل شامل فى الجهاز العصبى ، مما يعود عليك بالخير العميم ، ويبعد عنك أمراضاً كثيره أسبابها التسرع والتهيجّ .

وتقل تبعاً لذلك قابليتك للتأثر ، وتزداد ثقتك بنفسك ، ويأتيك التفكير الجاد المثمر طيِّعاً مختاراً ..

☐ **نظمٌ أعمالك :**

يجب أن تفكر فى ما ينتظرك من واجبات ، وما تقوم به وما تستنكف عنه فى أمور حياتك كلها ..

يجب أن توطن النفس وتوطد العزم ، وأن تسلك السبيل السوى ، وأن ترضى نفسك وترضى سواك .

استعرض فى وجدانك كل كبيرة وصغيرة ، تأمل فى المصاعب والعقبات ، فكر فى ما من شأنه أن يهدر وقتك .

انف عن بالك التأثيرات السلبية ، وكن مستقلا بلا أثره ، حراً بلا تعنّت .

واطرح على نفسك الأسئلة التى تثبت الأجوبة عليها حُسن أدائك أو تعثرك فى الأداء . اطرح هذه الأسئلة على نفسك :

هل قضيت يوماً مفيداً ؟ .

هل أضعت الوقت دون مبرر ؟ .

هل كنت يقظاً متنبهاً ؟ .

هل اكتسبت أشياء جديدة ؟ .

هل اتسم سلوكك بطابع الهدوء ؟ .

هل تأثرت بالغير وانقدت وخضعت ؟ .

هل أهدرت طاقتك ؟ .

هل تضجرّت وشعرت بالسأم ؟ .

الصعوبة موجودة ، وحديث العهد سيقاس منها فى البدء ، سيتعبه التنظيم ، سيتضجّر من اضطراره إلى النهوض فى ساعة معينة ، ومباشرته العمل فى ساعة معيّنة .. ولكنه بعد فترة يعتاد هذا فيقلّ تأففه وتضجره .

سيتضجر متى كان العمل مجهداً للفكر .. ولكن الذى راض إرادته وتعهدها بالتهذيب .. لن يثنى عزيمته شيء ، سيقاوم كل نوازع التثبيط لتندفع قوته الذاتية فى طريقها إلى التفكير الجاد المثمر الأكيد .

غير أن الخطر كل الخطر من فى النزعات الكثيرة التى تسعى إلى صرفك عن مواصلة جهودك ، وإبعادك عن عملك ، ستشعر بالإغراء ، إغراء المتعة ، اغراء التوانى ، إغراء قضاء الوقت فى تبطُّل .

فإن لم تستجب لحوافز اللهو والمتعة والخمول ، إن لم تقع فى الفخ ، وتابعت تفكيرك الجاد المثمر ، تكن متابعتك انسياقاً مع إرادتك فى البقاء والإنجاز ، إلا أن الغريزة تغيِّر أسلوبها بعد أن تكون رغبتك فى التفكير قد اضمحلّت ، وإن تابعته على مضض .

ولنفرض أنك رغم هذا واصلت التفكير ، فهل تنسحب المراكز الغريزية ؟ كلا ، فهى تدهمك بالتأثيرات العاطفية ، فتمر بك الصور القديمة ، وتغرق فى الخيال ، ولا تلبث أن تمل العمل ، وتفضل عليه الشرود والتحليق مع الأوهام والأحلام .

فلابد من السيطرة على هذا التخلف ، على هذه الأفعال العكسية ، ولا يتأتى ذلك إلا بالتنظيم .

بالتنظيم تستطيع أن تقاوم .. بالتنظيم تستطيع أن تمنع الغضب من الإستيلاء عليك ، وكذلك التهيّج والأنفعال والتأثر .. بالتنظيم تستطيع أن تمضى فى طريقك مكتسحاً ما تجده أمامك من عراقيل الغرائز .

أجل ، بالتنظيم ينسجم تفكيرك ويتسق ، وتتضاعف شجاعتك ، وتُقبل على عملك .

عرفت كيف تقاوم الغرائز ، وواتتك الأفكار ولكنها فاضت وهنا الخوف ، لقد فاضت عن اللزوم . تُقبل على فكرة لتحققها ، فتغزو ذهنك فكرة أخرى ، ثم فكرة ثالثه ، ثم سلسلة من الأفكار .. وتبتعد بلا وعى عن الفكرة الأساسية ، عن الموضوع

الأساسى . فتحاول الرجوع ، تحاول أن تعود إلى فكرتك الأولى ، فيستعصى عليك الأمر .. إن دماغك قد تعب ، لأنه بذل الجهد وتعب ويحتاج إلى استجمام ! .

وهنا مكمن الخطر ، هنا تعرف أن هذه هى طريقة المقاومة فى المراكز الغريزية ، طريقة الفعل المنعكس فى الكرة الفكرية الرافضه للإرادة .

هذه القوة المعاكسة رهيبة حقا ، وكلنا نعرفها ونقاسى منها ، ولكننا لا نعرف كُنْهها ، فهى تفعل فعلها مستترة ، فى الحدث والرجل ، فى الكبير والصغير إذا كنت تكتب تشعر كل دقيقه أنك تواق إلى شرب فنجان من القهوة ، أو إلى أشعال لفافة ، فتنصرف بذلك عن أفكارك ، ويتعطل أندفاعك .

وإذا كان الشاب يدرس ، تعلل بشتى الحجج ليتوقف عن الدرس بعد كل ربع ساعة ، إما ليأكل لقمة ، أو ليشرب ماء ، أو ليلقى نظرة على برنامج ! .

هذا الفعل المنعكس يعكس حياتنا كلها إن لم نقاومه ونتغلب عليه .

□ راقب مخيِّلتك :

من المؤكد أن استعمال المخيلّة لتتذكر أو لتفكر فى الماضى والحاضر . أو لتفكر فى المستقبل ، أو لتصف ، أو لتلاحظ ، أو لتتعلم ، أو لتعثر على الحلو هو استعمال لا غبار عليه ، ولاشك أن التأثير الواعى للمخيِّله يؤثر تأثيراً إيجابيا حسناً على عوامل الذكاء القلبى .. فالمخيلة ضرورة وبدونها لاسبيل مطلقا إلى التبصّر والتنظيم .

بيد أن المراقبة على المخيلة ضرورية فيما يتعلق بميولنا ونزعاتنا ، مراقبة الصورة العفوية التى ترسمها هذه الميول ، لأنها فى الواقع صوره مشوّهة مضللة تضعف إلى حد بعيد قوة البت والحكم .

الصورة العفوية المشوهة هذه لها آثار مفزعة فى النهاية ، فأنت فيها تملك المؤهلات والاستعدادات كلها .. وما من شك فى أن التفاؤل المفرط الذى يعطينا صورة خاطئة عن اتّساق الأمور ، وتحقق الآمال لا يقل سوءاً عن التشاؤم الذى يمهد بإلحاح للفشل ... فهما ، هذا التفاؤل المتمادى وذلك التشاؤم الأسود ، حالتان من حالات الخيال الجامح متعاكستان متضاربتان ، الأولى حالة ابتسام تخدع ، والثانية حالة عبوس تخدع .. الأولى حالة أحلام .. والثانية أيضاً حالة من الأحلام .

ولا تنفع الأحلام ، وعلى الإنسان الذى يسعى إلى التفكير الجاد المثمر أن يتخلص من حالة كهذه ، فيضع مشاريعه على أعمدة موطدة ، ويخطط وينظم ،

ولا يسمع للمخيّلة أن ترود مجاهل الفضاء ، ولا يسمع لها أن تغوص فى مجاهل ما تحت الأرض ! .

□ وجِّه تفكيرك :

التوجيه المتزن للفكر لا محيص عنه . فالتفكير يؤثر فى الذى فكر ، وفى الذى كان موضع التفكير ، سواء بسواء .

ولاجرم أن توجيه الفكر الجاد المثمر يتيح الوسائل القمينة بالكشف عن الغاية المثلى التى نستهدفها ونطلبها .

أن التوجيه الحسن لتفكيرنا يمكننا من الاتجاه نحو غايتنا ويمكننا أيضاً من الوصول إلى ما نبتغيه بسرعة أن نحن ركزنا وعوَّلنا وطبقنا الأساليب الصالحة التى مرّ ذكرها ..

إن لكل باعث سبباً داخلياً أو أسبابا . والخطوة الأولى التى يخلق بنا إتيانها هى توجيه الأفكار ، ولا يتحقق هذا إلا متى ميزنا الأسباب هذه ، وعرفنا بواعث أفكارنا .

وهذا المرمى لا نصيبه إلا بشروط ننفذها :

باكتساب القدرة على الأستغراق فى العمل استغراقاً يُنسينا ما يجرى حولنا وأمامنا .

بالتفكير فى قضية أو مسألة معينة تفكيراً جاداً طويلاً دون أن يصرفنا عن فكرنا شىء .

بالابتعاد عن المؤثرات الخارجية .

ولا نصل إلى غايتنا هذه إلا بالتعلم ، بتعليم ذاتنا ..

بيد أن التعليم الذاتى يحتاج إلى الإرادة التى تفرض الاستمرار . ويهون الأمر متى عقد الإنسان العزم وصمّم ، لأنه بالقوة هذه يبلغ الأرب مهما شق الطلب ! .

ومتى استيقظت مواهبك كلها . وسعت دائبة مخلصة لبلوغ الأرب وتحقيق النتائج المتوخاة ، تكون فى وضع تطبيق عملى حقيقى . وفى وسعك استبقاء هذه الحالة إن أنت أفرغت جهودك فى التنفيذ بالطرق السليمة القويمة ضارباً عرض الحائط بالنزعات المعاكسه التى تجذ بك جذباً شديداً نحو العمل الرتيب الذى ينقصه الفكر .

ولا ريب أن الأعمال الثانوية كفيلة بإتاحة الفرصة الطيبة للعمل بأسلوب مفكر عاقل .

مثال ذلك ما قاله رجل بدأ حياته عاملا فى منجم :

« عندما بدأت الحفر فى المنجم منقّبا عن الذهب ، قال لى زميل من العمال القُدامى :

– أيها الصديق الصغير ، أنت لا تعمل عملا صالحا ، تتعب نفسك أضعاف ما يجب أن يكون التعب ، وتثقل على نفسك بطريقة رديئة لا تفيد فى شىء ، وإن شئت جنى الثمار فضع فى معولك الذكاء ! » .

أضع فى معولى الذكاء ..

وفكرت مليا ، ماذا يعنى الرجل ؟ هل المعول كائن عاقل ليكون ذكياً أو غبياً ؟ .

وعرفت ما رمى إليه ، عرفت أن العمل لكى يثمر يحتاج إلى تضافر الذكاء والقوة .. يحتاج إلى ذكاء موجّه للعضلات ، وإلى ذكاء يهبط بالمعول فى المكان اللازم ، ويحتاج إلى رفع أكبر كمية من التراب بأقل جهد ...

وطبقت النظرية ، فكرت فى المعول ، ركزّت عليه ، ورأيتنى أنهى من العمل فى يوم ماكنت أنيهه فى أسبوع .

وأدركت أيضاً أن العمل يصعب ويشق متى انتفى منه التفكير ، فغدا حركة رتيبة آلية ! » .

وهذا صحيح لا شُبهة فيه ، ولا مغالاة ، فالعمل بلا تفكير تكون نتيجته مشكوكاً فيها ..

والتصميم على إحراز التقدم فى عمل يتيح لنا السير فى العمل بطريقه مفكرة حكيمة ، ويحذف منه صفة الرتابة الذميمة ، وفى الوقت نفسه يكون إتقان العمل والسرعة فيه ، والإجادة ثماراً من ثمار التصميم .

ومن الأهمية بمكان أن يعتقد الإنسان الذى قسر على عمل لا يميل إليه ، أنه يجب أن يحب هذا العمل ، وأن يروض نفسه عليه ، فيضيف من وراء ذلك مهارة إلى مهاراته ، لأن الممارسة تتيح المهارة ، ومتى مهرَ إنسان فى عمل ، فهو يحرص عليه ويشعر بالميل إليه .

بذلك ينقلب النفور من عمل إلى ميل ، ويقنع الإنسان وينشرح صدره بالتفكير الجاد المثمر ، ويكون النجاح من نصيبه وقسمته ! .

الفصل الثانى

القراءة وفن التفكير

« القراءة تمد العقل بمادة المعرفة ....
ولكن التفكير هو الذى يجعل ما نقرأه ملكا خاصاً لنا » ..

القراءة غذاء الفكر

لما أنشئت المكتبة الأولى فى مصر ، وضعت تحت حماية الآلهة وكتب على بابها : « هنا غذاء النفوس وطب العقول »[1].

وما نعرف شيئاً يحقق للإنسان تفكيره وتعبيره ومدنيته ، كالقراءة ، فهى تصور التفكير على أنه أصل لكل ما يُقرأ ، وعلى أنه غاية لكل ما يقرأ . فالكاتب يفكر قبل أن يكتب ، وأثناء كتابته ، والقارىء يفكر فيما يقرأ أثناء قراءته ، وبعد أن يقرأ .

وكذلك يمضى الإنسان فى تحقيق هاتين الخصلتين ا للتين تميزانه وتضعانه حيث أراد الله له أن يكون من التفوق والرق ؛ وهما العقل والمدنية .

فإذا أمر الله الإنسان بأن يقرأ ، فإنما يأمره بأن يطمع إلى الكمال ، ويسعى إليه ، من هنا كانت القراءة هى أخص مميزات الحضارة ، تكثر وتنتشر إذا اتسَّعت الحضارة وارتقت ، وتقل وتتضاءل إذا ضاقت الحضارة وانحطت .

وكانت القراءة فى أول الأمر مقصورة على قلة ضئيلة من الناس فى كل شعب من الشعوب المتحضرة ، وكان رق الحضارة واتساعها يدعوان إلى شيوع القراءة وانتشارها ، حتى كان هذا العصر الحديث ، وحتى كانت الديمقراطية التى أخذت تلغى الفروق والامتيازات وتقرِّب ما بين الطبقات ،وإذا القراءة تصبح حقا شائعاً لكل إنسان بل واجباً محتوماً على كل إنسان يريد أن يحيا حياة صالحة .

وأفضل أنواع القراءة هى التى ترقّى العقل ، وتنقّى الطبع ، وتصفّى الذوق ؛ ولكن القراءة على كل حال هى الطريق الطبيعية لرق العقل ، والطبع ، والخُلق ، والذوق وحيثما انتشرت القراءة طلب الناس ما يقرءون ، وتنافس الممتازون منهم فى أن يقدموا إليهم ما يقرءون ، ونشأ عن هذا كله ما نعرفه من قوة الحياة العقلية ، وخصبها ، وما ينشأ عنها من نتائج لا تحصى فى حياة الناس .

فليست إضافة عدد من السنين إلى العمر بالشىء المهم إلا على اعتبار واحد وهو أن يكون العمر المضاف مقداراً من الحياة لا مقداراً من السنين ، أو مقداراً

---

(١) لماذا نقرأ ؟ لطائفة من المفكرين – طبعة دار المعارف .

من مادة الحس والفكر والخيال ، لا مقداراً من أخبار الوقائع وعدد السنين التى وقعت فيها . فإن ساعة من الحِسِّ والفكر والخيال تساوى مائة سنة أو مئات من السنين ، ليس فيها إلا أنها شريط تسجيل لطائفة من الأخبار وطائفة من الأرقام .

والقراءة دون غيرها هى التى تعطينا أكثر من حياة واحدة فى مدى عمر الإنسان الواحد ، لأنها تزيد هذه الحياة العمق ، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب .

فكرتك أنت فكره واحدة ..

شعورك أنت شعور واحد ..

خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك ..

ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى ، أو لاقيت بشعورك شعوراً آخر ، أو لاقيت بخيالك خيال غيرك .. فليس قصارى الأمر أن الفكره تصبح فكرتين ، أو أن الشعور يصبح شعورين ، أو أن الخيال يصبح خيالين ..

كلا .. وإنما تصبح الفكره بهذا التلاقى مئات من الفِكَر فى القوة والعمق والاحتواء ..

وتسألنى ما هو سر الحياة ؟، فأقول على الإجمال : إننى أعتقد أن الحياة أعم من الكون ، وأن ما يُرى جامداً من هذه الأكوان أو مجرداً من الحياة إن هو فى نظرى إلا أداة لإظهار الحياة فى لون من الألوان أو قوة من القوى .. والحياة شىء دائم أبدى أزلى ، لا بداية له ولا نهاية ..

فإذا كنت تستطيع أن تعرف سر الله عرفت سر الحياة ، ولكننا مطالبون بأن نحفظ لأنفسنا فى هذا المحيط الذى لا نهاية له أو سع دائرة يمتد إليها شعورنا وإدراكنا .

والكتب هى وسائل الوصول إلى هذه الغاية .. وهى النوافذ التى تطل على حقائق الحياة ، ولا تغنى النوافذ عن النظر .

ومن جهة أخرى فإن الكتب غذاء الفكر ، وتوجد أطعمة لكل فكر ، كما توجد أطعمة لكل بنية ، ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام ، وكذلك الإدراك القوى يستطيع أن يجد غذاء فكريا فى كل موضوع . وعندى أن التحديد فى اختيار الكتب إنما هو كالتحديد فى اختيار الطعام . وكلاهما لا يكون إلا لطفل فى هذا الباب أو مريض ، فاقرأ ما شئت تستفد إذا كان لك فكر قادر أو معدة عقلية تستطيع أن تهضم ما يُلقى فيها من الموضوعات ، وإلا فاجعل القابلية حكما لك فيما تختار لأن الجسم فى الغالب يغذيه ما نشتهيه .

ولا تغنى الكتب عن تجارب الحياة ، ولا تغنى التجارب عن الكتب ، لأننا نحتاج إلى قسط من التجربة لكى نفهم حق الفهم ، أما إن التجارب لا تغنى عن الكتب ، فذلك لأن الكتب هى تجارب الآف من السنين فى مختلف الأمم والعصور ، ولا يمكن أن تبلغ تجربة الفرد الواحد أكثر من عشرات السنين ..

ولا أظن أن هناك كتباً مكررة لأخرى ، لأنى أعتقد أن الفكرة الواحدة إذا تناولها ألف كاتب أصبحت ألف فكرة ، ولم تعد واحدة .. ولهذا أتعمد أن أقرأ فى الموضوع الواحد أقوال كتّاب عديدين ، وأشعر أن هذا أمتع وأنفع من قراءة الموضوعات المتعددة ..

أما تأثير كل من أنواع الكتب الثلاثة : العلمية ، والأدبية والفسفية ، فهو أن الكتب العلمية تعلمنا الضبط والدقه ، وتفيدنا المعارف المحدودة التى يشترك فيها جميع الناس ، والكتب الأدبية توسع دائرة العطف والشعور ، وتكشف لنا عن الحياة والجمال ، والكتب الفلسفيه تنبه البصيرة وملكة الاستقصاء وتتعدى بالقارىء من المعلوم إلى المجهول ، وتنتقل به من الفروع إلى الأصول .

وكل من هذه الأنواع لازم لتثقيف الإنسان ، وتعريفه جوانب العالم الذى يعيش فيه .

والحديث عن القراءة والفكر يبدو جذاباً مؤثراً حين نتحدث عن ماهية القراءة فى عُرف العلماء المحدثين ، فالقراءة فى عرف «فاليرى» رذيلة لا يعاقب عليها ، وفى عُرف «ديكارت» حديث مع شرفاء القرون الماضية ، وفى عُرف «أندريه موروا» فن من الفنون ، ولكل من هذه التعريفات وجاهتها ، فرذيلة القراءة كما بسطها «موروا» فى كتابه « من فنون الحياة » . متوافره فى أولئك الذين يدفعهم الجشع إلى قراءة كل ما تقع عليه أنظارهم لا يريدون بها الوقوف على الآراء والأفكار ، بل على صفوف من الكلمات تخفى عنهم حقيقة العالم وحقيقة نفوسهم ، كمدخن الأفيون لا يلتمس من وراء تدخينه إلا الهرب من عالم الحقيقة إلى عالم الأوهام والأحلام .. على أن قراءة المتعه هى التى يتفقد فيها القارىء صور الجمال ، ونزوات العاطفة ، وغريب الحوادث ، فى حين أن قراءة الفائدة هى التى يبحث فيها القارىء عن مستكملات ثقافته وعناصر تهذيبه .

ومهما أوتى الإنسان من عبقرية فقد تجف نضارتها إن لم يتعهدها برىّ القراءة ، وقديما حفل الرومان بالقراءة العلنية ، فكان العبد يقرأ لسيده بصوت عال ، وكان

العالم أو الأديب إذا فرغ من تأليف كتاب من الكتب قرأه على نخبة من قومه قبل نشره ، وبقيت هذه العاده مستحكمة طوال القرن الأول بعد الميلاد ، وقيل مثل هذا فى حوليات «زهير بن أبى سُلمى» ، وجرى مثله فى أندية الغرب الأدبية ، ولئن كانت القراءة فناً من الفنون ، إنها كذلك مصدر الإيحاء إلى الفن ، ففى متاحف «اللوفر» و «بُركسل» و «لكسمبرج» ألواح فنية لأمهر الرسامين تمثل القراءة والقارئين .

والشعر ولاشك صديق حميم ، فهو أنيس الروح ، وجناح الفكر ، يجلو للقارىء مواطن السحر والجمال ، ويحّرك فيه كوامن الشعور ، ويرق بفكره على أجنحة الخيال إلى مصادر الإلهام ، فيسير به فى شعابه المتألقه بالنور والضياء ، متنقلا من روعة إلى روعة ، ومن عجب إلى عجب .

وهذا شوق يقول فى أحد مطالعه :

أنا من بدّل بالكتب الصحابا لم أجد لى وافيا إلا الكتابا

ولئن وقف بعض علماء اللغة عند هذه الباء الداخلة على غير المتروك ، لقد آثر «شوق» الكتب على الصحاب ، إذ وجدها لا تنقض عهدها ، ولا تحقر ذممها .

هذا والمفكرون فى الشرق والغرب قد أجمعوا على عدّ الكتاب صديقاً وفيًا ، ظريف العِشْرة ، نافع الحديث ، مأمون الغيبة .

أما «مرسيل بروست» فيرى أن الكتاب أفضل من الصديق ، وأنفع من حديث الحكماء ، ذلك بأن السكون الذى يحيط بنا عند القراءة يحفظ علينا تفكيرنا قوياً سليماً بعيداً عن مؤثرات المتحدث ، فالسكون إذن ضرورى لكل ما يثير فينا الفتنة والتفكير والإعجاب ، كما أن اللوح الفنى لا نستطيع إدراك أسراره إلا إذا تأملناه منفردين .

ولقد كان للكتاب شأن وأى شأن فى جميع العصور فهو حرز لا يتداوله إلا الكهنة وخدّام المعابد والهياكل ، ثم هو شىء نفيس لا يقتنيه إلا الأمراء والزعماء ، ثم هو أداة للتثقيف والتهذيب تزخر به المكتبات العامة والخاصة . ويحتفى به طلاب العلم أولئك الذين تضع الملائكة اجنحتها لهم .

فهذا «كسرى أنوشروان» يقع له خبر كتاب « كليلة ودمنه » . فلا يقرّ له قرار حتى يبعث «برذويه» إلى بلاد الهند لاستخراج الكتاب من خزائنها ، وإقراره فى خزائن «فارس» ، وهذا «المهلّب» يقول لبنية : يابنّى إذا وقفتم فى الأسواق ، فلا تقفوا إلا على من يتبع السلاح أو يبيع الكتب . وهذا «الصاحب بن عباد» يسافر من بلد

إلى بلد ومعه حمل ثلاثين جملا من الكتب ، وعندما يعرف أن «سيف الدولة» دفع ألف دينار ثمن كتاب الأغانى يستقل الثمن ، وهذا «المتنبى» يشهد بأن خير جليس فى الزمان كتاب[1]. وهذان أميران من أمراء الغرب يبرمان معاهدة بينهما ويشترط أحدهما فيها على الآخر أن يظفر منه بمخطوط من مخطوطات المؤرخ «ثيت ليف» . وهذا «الحسن بن على بن أبى طالب» يقول لبنيه وبنى أخيه : تعلموا العلم فإن لم تستطيعوا حفظه فاكتبوه وضعوه فى بيوتكم . وهذا «كارليل» يقول : إن جامعة هذه الأيام الحقيقية هى مجموع الكتب .

ولا يستطيع القارىء أن يحصر مقدار الفائدة التى يجنيها من كتاب ، ومجمل القول هو أن القراءة تنّمى الفرد ، والفرد ينّمى المجتمع ، ولن تكون تنمية بغير قراءة . فالقراءة هى جهاز الاستقبال الذى يفتحه القارىء على الدنيا فيغترف بعينيه ما فيها من جديد .

ثم إنى لا أعرف طريقة لتحبيب القراءة إلى من ليس لديه استعداد لها . ولكنى أستطيع القول أن الفرد الذى لا يقرأ يوقف التيار الفكرى الذى يربطه بالعالم ، ويحكم على نفسه بالعزله ، وعلى عقله بالجمود ، وعلى ملكاته بالتحجُّر .

والذى يقرأ يقوم بعملية لازمة لزيادة كفاءته الشخصية على حل مشاكل الحياة . وهو يضفى من زيادة كفاءته على تحسين عمله ، فيلقى من التقدير ما يفتح له أبواب النجاح .

لقد كانت القراءة فى عهد اليونان سبيلا إلى الترف الذهنى والأحاديث الجذابة ، فأصبحت اليوم منبعاً للمعرفة ، فهى الطريق الطبيعى لرقّى العقل والطبع والخُلُق والذوق ، وهى أخص مميزات الحضارة . منها نتعلم كيف نسعف المريض ، ونصلح السيَّارة ، ونربّى الطفل ، ونسوّق السلع ..

إن القراءة هى التى تأخذ بأيدينا اليوم إلى إنتاج أكبر ، وحياة أفضل على طريق الحضارة والتقدم والرخاء .

كيف تجد وقتاً لتقرأ ؟

« .. هناك كتب تستحق أن يتذوقها القارىء .. وكتب تستحق أن يلتهمها .. وكتب تستحق أن تُمضغ وتُهضم » ..
« فرنسيس بيكون »

(١) قوله :
أعز مكان فى الدُنى سَرجُ سابحٍ وخير جليس فى الزمان كتـاب

قد تقول : ولكن عملى ومطالب حياتى لا تترك لى وقتاً للقراءة ، وللرد على هذا الزعم «الوهمى» . أيّا كانت ضخامة مشاغلك ومسئولياتك ، أقدم لك خلاصة بحث ، مدعم بالإحصاءات ذات الدلالة البليغة ، نشره الباحث «لويس شورز» تحت عنوان « **كيف تجد وقتاً لتقرأ ? How to find time to read** » .

وفيما يلى أهم ما انتهى إليه من نتائج :

● إذا كنت قارئاً متوسطاً (عادياً) فأنت تستطيع أن تقرأ الكتاب العادى بمعدل ٣٠٠ كلمة فى الدقيقة ، لكنك لن تبلغ هذا المعدل أو تحافظ عليه إلا إذا قرأت يومياً بانتظام إلا أنك لن تستطيع المحافظة عليه فى الكتب المتخصصة ، مثل العلوم ، والرياضيات ، والزراعة ، والشعر ، وكتب الأدب ذات الأسلوب الذى يستحق وقفة تأمل كل حين .. أو أى موضوع علمى جديد عليك .

● معنى هذه السرعة ، أنك تقرأ ٤٥٩٩ كلمة كل ١٥ دقيقة فإذا ضُرب هذا الرقم فى سبعة أيام ستكون الحصيلة ٣١,٥٠٠ كلمة فى الأسبوع .. أو ١٢٦,٠٠٠ كلمه فى الشهر .. أو ١,٥١٢,٠٠٠ (حوالى مليون ونصف كلمة فى العام) ، وهذا كله نتيجة القراءة لمجرد ربع ساعة كل يوم ! .

ولما كانت الكتب تتراوح عادة بين (٦٠,٠٠٠ – ١٠٠ ٠٠٠) كلمة فى المتوسط ، فإن المحصول السنوى لقارىء الربع ساعة فى اليوم : يكون ما يقرب من عشرين كتاباً فى العام ! .

● وقد جرب هذه الطريقه طبيب وعالم من أشهر أطباء العصر الحديث هو «سير وليم أوسلر» ، وهو الذى تتلمذ على يديه الكثيرون من أساطير الطب المعاصرين ، كما درس أطباء العالم كتبه المشهورة فى الطب .. وقد عزا عارفوه بعظمته .. فضلا عن تفوقه فى فنه الخاص – إلى ثقافته العامه ، البيعدة المدى «سير وليم أوسلر» معروفاً بسعة اطلاعه فى كل ما فعله الجنس البشرى ؛ وفكر فيه ؛ خلال العصور المتواليه ، وكان يدرك أن السبيل الوحيد للوقوف على أفضل تجارب بنى الإنسان هو قراءة ماكتبوه فى كتبهم .. لكن مشكلته الحقيقية كانت هى مشكلة كل رجل مشغول ، وهو أنه لا يملك خلال الأربع والعشرين ساعة اليوميه وقتا يخرج به عن حدود عمله ، سوى ما يقتطعه من ساعات قليلة للنوم وتناول الطعام ، وتلبية مطالب حياته الضرورية .

لكن «أوسلر» توصل إلى الحل ا لذى ينشده فى مرحلة مبكرة من حياته ، فنظمها على أساس أن يقرأ لمدة ربع ساعة كل ليلة قبل النوم مباشرة ، أيّا كانت

فراشه

الظروف !... فكان إذا آوى إلى فراضه فى الحادية عشرة مثلا ، يقرأ حتى الحادية عشرة والربع .. وإذا شغلته جراحاته أو أبحانه حتى الثانية صباحا ، يقرأ إلى الثانية والربع ، وهكذا ... ولم يشذ عن هذه القاعدة التى وضعها لحياته يوما واحداً ، خلال نحو نصف قرن ! ..

وكان الدستور الذى استنه لقراءاته الليلية أن تكون منعدمة الصلة بمهنته وعمله ، فحصل من هذه القراءات على أطلاع واسع نادر المثال ، مما كفل له التوازن فى شخصيته بين التثقيف المهنى والتثقيف العام ! .

وفى العالم كثيرون من أمثال هذا الطبيب الفذ ، نمّوا شخصياتهم بالقراءة فى غير نواحى عملهم أو تخصصهم .. وقد اشتهر الألمان بصفة خاصة بالإقبال على القراءة فى شتّى الموضوعات ، ولعل هذا من عوامل تفوقهم وتعدد وجوه ثقافتهم وشمولها كافة نواحى المعرفة .

● ومن أمثلة الإقبال على القراءه – فى جميع الظروف – أن ملازماً فى الجيش الأمريكى ؛ خلال الحرب العالمية الثانية ، لفت الأنظار بتضخم ملف خدمته بشهادات التقدير من رؤسائه ، والإعجاب بسعة اطلاعه ووفرة معلوماته ، حتى دفع الفضول إلى تقصى أسباب هذه الظاهرة .. فتبين له أن الضابط المذكور كان ينتهز كل فرصة ليقرأ ، إلى درجة أنه كان إذا صدر إلى طابوره الأمر بالوقوف فى حالة «انتباه» لبضع دقائق ، يخرج من جيبه كتاباً ليقرأ فيه ! .. وكان قد نمّى فى نفسه – منذ صباه الباكر – عادة أن يحمل فى جيبه كتاباً صغيراً ليقرأ فيه فى أية لحظة لايجد فيها شيئاً آخر يفعله .

وقد وجد فى هذه العادة متعة وفائدة ، وواظب على ممارستها فى كل فترات الانتظار التى يضيعها أغلب الناس هباء ، مثل فترات انتظار الأتوبيس ، والطعام ، والطبيب ، والحلاق ، والتليفون ، وحفلات السيمنا والمسارح .. إلخ .. وهى فرص تتيح لكل شخص أضعاف أضعاف الخمس عشرة دقيقة المطلوبة لقراءة عشرين كتابا فى العام . أو ألف كتاب فى نصف قرن ! ..

ولو انصرف كل راكب أتوبيس ، أو مترو[1] عندنا – من الجالسين على الأقل – إلى القراءة أثنا الطريق ، بدلا من الاشتراك فى الأحاديث العقيمة ، أو الانحياز إلى أحد الطرفين فى المشادات ... أو التدخل فى شئون بقية الركاب ، إذن لأراحوا واستفادوا ! .

(١) والفرصة تبدو سانحة تماماً لركاب مترو الأنفاق للقراءه .

وكل ما يلزمك لتنفيذ هذا البرنامج شيء واحد : أن تتوافر لديك الإرادة ، أى الرغبة فى القراءة ... وعندئذ سيسهل عليك أن تجد ولو (١٥) دقيقه فقط من يومك تقرأ فيها ، مهما كانت مشاغلك ، بشرط أن تجعل الكتاب فى متناول يدك وفى كل ظرف .. ضع كتابا فى جيبك حين ترتدى سترتك ، وكتابا آخر بجوار فراشك ، وثالثا فى الحمّام ، ورابعا فى غرفة المائدة ، وهكذا ..

ولكن لعل أفضل ما يُشار به على الأجمال . هو ألا تُكره نفسك على القراءة ، وأن تدع الكتاب فى اللحظة التى تشعر فيها بالفتور والاستثقال .

□ الإدراك والمطالعة الناقدة :

إن علينا حين نطالع أى شيء أن نتفهمه أولا وبعد ذلك ننقده . وينبغى أن نعطى أنفسنا عادة الانتباه الناقد حتى يهيء لنا أول احتكاك لنا بأى شيء يستحق الجهد ، طابعاً يقظا على قدر ما تتيحه لنا مقدرتنا .

والنقد ، حين نقرأ أو نفكر أو نشعر على ذلك النحو ، هو قطعاً ما ينبغى دائماً أن يكون ، أعنى الموازنة بين ما يجب أن ننحنى له وما يساورنا الشك فيه ، ونحن لا نهوّن من شأن كبار الكتّاب أو كبار المفكرين بإخضاعهم لهذا الاختبار ، بل النقيض من ذلك . ألم تشاهد قَطّ مصوراً ؛ رجل فن أصيل ؛ يرقب فى معرض للصور روائع منه ؟ ياللفارق الكبير بينه وبين الجمهور المتدفق كالسيل ، الذى يدفعه بالمناكب ! لا شيء يفوت عينيه وهو يدرس فى الصور أدق التفاصيل ، وقد تجلت فيهما صلابة المصورين المألوفة ، ولكن الفنان يغلق عينيه على حين بغتة ، فتدرك أنه قد راح يتخيل الصورة المثلى . وبمزيد من الفحص يمكننا أن ندرك الرؤية الفنية عند هذا الفنان كمصور للعواطف .

إن التفهم الواعى نقد ، والنقد أو الحكم مجرد مرادف للفكر .

كيف تقرأ لتفكر ؟

يقول شوبنهور فى أحد مأثوراته بمؤلفه « الأسفار الخمسه » : « لا تقرأ ... فكر ! » ، هل يمكن تعديل اللفظ على هذه الصورة « لا تفكر ابداً .. أدرس دائماً » قول جاف ! لا ، ليس جافاً مادمنا ندرك أنه ينبغى أن ندرس مالا يوفر لنا المتعه ؛ وأن الدراسة تنصبّ فقط على أية وسيلة نستخلص بها من الكتب ما يضفى علينا

أعظم متعة ، بنفس الطريقة التى يدرس بها فنان وجها جميلا بدلا من مجرد التحديق فيه ، ولا نستطيع قط أن نكرر القول مراراً كافية بأنه ما فيه من شىء عقلى يمكن تحقيقه ضد الإرادة أو بتعبير آخر فى ميدان لا يجتذبنا إليه ؛ والعمل فى عروقنا ، دون إحساس بالجهد ، بل على العكس بإحساس من الراحة والحرية هو الشرط الأساسى لعملية عقلية صحيحة ، فلا تشتغل بعلم الجبر حين تكون الملهاة مستحوذة على لبّك ، وإذا كانت القصة الهزلية تستهوى لبّك أكثر من الملهاة فاترك الثانية وأدرس الأولى ، فقط «أدرسها» ولن يمر وقت طويل على عملك هذا قبل أن تستكشف وجود لذة أوفر وأعمق فى دراسة أكثر القصص هزلية .

وإذ سبق هذا كمبدأ فكيف ينبغى أن تطالع ؟ كما تهوى ، فإذا كنت تضفى المتعة على نفسك بالمطالعة السريعة ، فأسرع فى مطالعتك ، وإذا كنت تطالع ببطء ولا تشعر بميل للإسراع فى مطالعتك ، فالتزم البطء فى مطالعتك ، ويقول بسكال : إننا حريون بالإسراع الشديد أو الإبطاء الشديد فى المطالعة ، ولكنه يوجه اللوم فقط للإسراف فيها (من الحماقة قراءة غير الجاد بسرعة بالغة ، أما الجاد فهو الكاسب فى حالات كثيرة إذا قُرىء بنشاط وحيوية) ، ويشكو مونتانى من الأسلوب الشكلى فى المطالعة فيقول : « يداعب الكرى أفكارى حين تُعطى مقعداً للجلوس ولذلك فهى تسير وأنا أسير » ويكتفى العمل الأمين بالسير قدما ، أما حب الاستطلاع فيطير بأجنحة عطارد ،والمطالعة العاطفية الحارة لا تطير فحسب ، إنها تحلِّق ، ولكنها تفعل هذا فقط لأنها تستطيع الاختيار ، وهذه مأثرة عقلية رفيعة . كيف تقرأ جدول مواعيد القطارات ؟ تطفر من فوقه طفراً حتى تصل إلى ضالتك ثم تغفل العالم برمته وتنكب على قطارك : قيامه ووصوله وما بينهما ، ويحدث نفس الشىء حين يعبر سائق سيارة خريطة محلية لراكب دراجة يقف حائراً عند ملتقى للطرق ، فالأخير يكبّ نفسه فى قراءتها ، وهذا يحدث أيضاً مع شيك مالى فى خطاب ينتظر صديق منك أن ترده ، وهو بالذات ما يحدث مع أية وصفة لإنتاج حجر الفلاسفة[1]، وكل ما نطالعه مما يثير حواس حب الاستطلاع الشديد يقدم لنا نموذجاً لما ينبغى أن نطالعه دائماً ؛ وشق الطريق فى مثابرة بين السطور ، صفحة إثر صفحة ، مع توجيه قدر متساو من الانتباه لكل كلمة ، يسفر عن الاهتمام بمجرد الألفاظ ، والاهتمام بالألفاظ لا ينتج فكراً على الإطلاق ، ولكنه ينتهى قطعاً إلى ضروب من

---

(١) حجر الفلاسفة هو الأسم الذى أطلقه الأقدمون على المادة التى توهموا أنها تحول المعادن الرخيصة إلى ذهب .

الشرود الذهنى ، ولذلك يذهب أى مجهود جليل القدر هباء مع الريح بتزمته الوجدانى الأخرق .

وواضح أنه لزام علينا أن نضع حداً بين ما نطالعه لمعلوماتنا ، وما نطالعه لتكويننا ، وبين ما نحتاج إليه لفائدتنا ونحتاج إليه لنمونا ، وليس من المأمول قط مطالعة التاريخ سواء كان تاريخ السياسة أو الفن أو الأدب أو الفسلفة أو الأديان أو العلوم ، حقائق ونتائج الحقائق ، سواء كان الأفضل تلخيصها بموسوعات علمية أو اختزالها بسهولة فى كتب للإرشاد ، أجل ليس من المأمول قط مطالعة كل هذا بطريقة أفضل مما يطالع بها عاشق الألقاب ما هو مدون بكتاب عن سير العظماء ، فالعقل يبدو مستغرقاً تماماً فى مادة المطالعة ، محاولا استيعابها فى لحظات ، دون مبالاة بالكتاب أو بالمؤلف . وكتب المعلومات والتاريخ جديرة أيضاً باحترامنا ، ولكنها أدوات وينبغى أن تُعامل على هذا الأساس ، وإذا احتجنا فقط لقراءة عشرين صفحة فلا تظن أننا ذوو ضمير حى ، بل بالأحرى سلبيون فحسب إذا طالعنا ثلاثين ، وإذا طالعنا فقط لتنشيط ذاكرتنا بخصوص موضوع بإلقاء نظرة عابرة على فصل تمت لنا إجادته من قبل فلنتجنب ضياع الوقت بإعادة قراءة كل لفظ فيه ، أو فلنتستعض عنه بمذكراتنا إن أمكن ، ونحن نوصى أولادنا أن يهتموا بكتابهم ويستوعبوه ، وينبغى أن ننصحهم أيضاً أن يفكروا ولا يقرءوا ، أو أن يقرءوا بعين مغلقة والأخرى نصف مفتوحة فقط ، وبذلك يقرءون فى ذاكرتهم بينما يعمل الكتاب كحافز فحسب ؛ ولماذا تطالع صفحة كاملة فى حين أن سطرين منها يقدمان لك فكرة كاملة عنها ؟ .

بل أنه لمن الممكن قراءة الكثير من الكتب بمجرد الإطلاع على فهرست محتوياتها ، فمن المؤكد أن العنوان يعطيك فكرة عامة عن موضوعها ، وإذن سل نفسك كيف تُقدم على معالجتها ؟ ما اللون الرئيسى لنقاشك ؟ وعُدْ إلى فهرس المحتويات فإن لم يكن إحدى تلك المهازل التى يغرق بها سوق الكتب ، فمطالعة عاجلة وممتعة للسبع أو ثمانى صفحات ستنبئك فوراً ما تستطيع أن ترقبه من الوافد الجديد ، حيث ينبغى أن تبحث عن المعلومات التى عليه أن يسوقها ، وحين تثق من اختلافك معه فى الرأى ، والمطالعة على هذا النهج لا تؤدى بك إلى النعاس ، ولا تترك فى ذهنك ظلالا وأفكاراً يسرّك التخلص منها ، ولكنها تضفى عليك صحوا ويقظة حتى لكأن الكتاب أحد المؤلفين الأحياء ، وهذا ما ينبغى قدر المستطاع أن يكون .

وفى كثير من الحالات يتيسر لك أن تحصل من تحليل سكرتير أو صديق الكتاب

أكثر مما تحصل عليه من قراءته مباشرة ، لأنك ستروح تستفسر عن العمل العقلى الجاد وسيكون الرجل الآخر يقظ ، وكثيراً ما يثير دهشتنا أولئك القوم المزدحمون بالعمل ، الذين يلجئون لهذه الطريقة العاجلة بالقدر الذى لديهم من المعرفة ، وكان الملك إداورد السابع على الرغم من أنه لم يقرأ شيئاً قط ، مطلعا على أحدث المعلومات عن نوعين أو ثلاثة من الأدب ، فقد كان فى أثناء الحلاقة أو ارتداء الملابس أو التدخين ، يوجه أسئلة لأشخاص أزكياء ، أو يأمر بأن تُتلى عليه مجالات نافعه مكرّزه ، وهذا طريق مَلَكى حقا للمعرفه ؛ ويشير لابروبير إلى هذا الطريق بقوله : « إن أبناء الملوك يعرفون كل شىء دون أن يكونوا قد تعلموا أى شىء » . فالتعليم الشفوى هو أعظم ضروب التعليم إنسانية ونفعاً ، والمسعى الحميد لخلق «تعليم جماعى» أو العادة النامية لوضع طلاب على اتصال دون كلفة بالمفكرين هو اتجاه سليم ، وأحيانا يتعجب الناس للنتائج التى يحصل عليها من يسمونهم «مجرد جماعيين» ، وتعود تلك النتائج إلى تفوق الوسائل التى تجعل عقل الطالب أوفر نشاطا مما كانت فى أى يوم مضى ، ولعل طالبين «يختبر» أحدهما الآخر ، مضيِّقا عليه الخناق ، فى الأسبوع السابق للامتحان ، يعرفان لأول مرة فى حياتهما معنى اليقظة العقلية ، وإذا استُخدمت وسائل الجماعيين فى المدارس النظامية فلن يكون ثمة حاجة لموسسات التجميع .

وتؤدى هذه الطريقة الحاسمة بل العدائية فى استكناه كتاب بمساءلته « ماذا لديك لتفصح عنه ؟ » إلى الوصول إلى المعلومات بطريقة منعشه ولكن التكوين أو الثقافة لا يمكن الوصول إليهما بنفس الوسائل المتعالية فهما يحتاجان لمزيد من الوقت ، ومزيد من الحب ، ومزجهما بعنصرى النقد الأدبى والتواضع الذى يتم أكتشافه عن طريق الخبرة أكثر من وصفة بالألفاظ .

والكتّاب الذين يعالجون الروح فى أكثر عملياتها دهاء وخفاء ، والشعراء والروائيون والأخلاقيون وعلماء النفس ، والمؤلفون الدينيون أو الروحيون جميعهم يخلقون حول أنفسهم نطاقاً من التوقير سرعان ما نفطن إليه ، وسرعان ما ينبهنا نطق وتنسيق أو لعبارة يتفوهون بها إلى أنه لا يمكن استخدام طريقة القصف والعسف هنا ، ثم يتحتم أن يحل الفهم المدرك مكان الذكاء المجرد ، وهذا يعنى التعاطف والتبجيل وعدم العجلة . ومن جانب آخر فإن الألفاظ التى تصاغ بها قد تلج عقلا حيث تستقر به ثم تروح تشكله وتمطه حتى يتم إدراكها ؛ فإيقاع ، أو صورة ذهنية ، أو فكرة

مصاغة فى كلمات قليلة على هذا النحو ، قد تكفى لتأمل ، لعل أحداث الحياة تدعه معلقا ولكنها لا تقاطعه ؛ ولم أنس قط ، ومن المؤكد أننى لم أبل قشيبه ، أبيات من الشّعر يرددها الأطفال عبر الشاشة الصغيرة .

وكانت أصوات هؤلاء الأطفال متهاونة ساخرة مثل الحياة ذاتها ، ومع ذلك فثمة خلجة رفق كانت تسبح ببعض مقاطع الشعر فلا تكاد تلج الأذن حتى تستقر فى أغوار الروح ، ولا مشاحة أن هناك فارقاً كبيراً بين اللغة البشرية التى تنقل الملعومات المجردة وبين الشعر الذى من هذا الصنف ، وكيمايتم فهم الشعر لابد من إعادة التفكير فيه ومن الشعور به مرة أخرى ، وهذا لا يتيسر لأى عقل أن يفعله دون أن نضيف شيئا من ذواتنا إلى مانمعن التفكير فيه ، وحين يتحدث الفنيون عن « النقد الخلاق » فإنهم يعنون هذه الإعادة لتكوين فكر عظيم ؛ ويصل النقد الخلاق إلى منزلة أرفع أنواع الأدب وأرفع أنواع الفكر

الفصل الثالث

التفكير فن

« لقد اكتشفت بطريقة غير شعورية وغير حسيِّة ، أن متعة الملاحظة والتفكير أعمق بكثير من المتعة المستفاده من المهارة والرياضة »

[من مذكرات داروين]

التفكير فن

إن الذهن البشرى آله إلهيه لا مثيل لدقتها ، وإحكامها . إن فى وسعها أن تفعل المستحيلات ، ولكن هذه الآله للأسف لا تعمل إلا بنصف طاقتها أو أقل ، لأنها فى الأغلب محاطه بالإهمال والفوضى وقلة العناية .

فالتدريب الذهنى أمر أساسى لا غناء عنه ، وأن تدرب عقلك بصورة منظمّة مرتبة ، لهو تأمين ضد التشتت ، وضياع المجهود ، والانهيار العصبى ، الذى يتأتى غالباً من التفكير المشتت ، والمجهود الضائع .

ويحسب أكثر الناس أنهم «يفكرون» والحقيقه عكس ذلك . فما يفعلونه حقيقة إنما هو ضرب من «الإحساس العقلى» إنهم يقفزون من ملاحظه عابرة إلى قاعدة عامة بغير أدنى تفكر أو تعقل .

فالتفكير المنظّم والحال كذلك ، أمر نادر جداً ؛ وقد أثر عن برناردو شو قوله : «إن أقلية ضئيلة من الناس تفكر مرتين أو ثلاثاً فى العام ، وقد اكتسبت أنا صيتاً لأننى اعتدت أن أفكر مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع» .

ويقول جوزيف ديفريز : «إن القدرة على التفكير ، والتمييز ، وتقدير قيم الأشياء ، من أهم الأسلحة التى يتسلح بها الشاب الطامح إلى النجاح .. ولكن لا تستطيع أن تكتسب هذه القدرة إلا إذا روّضت عقلك ، وأحسنت تدريبه» .

ومن الناحية التطبيقية فإن الممارسة المتعمقة لكفاءة ما ، هى الشرط الضرورى واللازم للإزدهار الفكرى ، ولا شىء يضارع الرضا العميق والحميم الذى نشعر به عندما ننجز عملا نحب قضاءه .

« ومالم نخطط برنامجاً محدداً ، ومالم نخصص نصف ساعة مثلا كل يوم للتفكير الصافى الصريح المستقل فمن المحتمل أننا سنهمل الممارسة إهمالاً تاما ، وقد يبدو أن نصف ساعة من كل أربع وعشرين ساعة وقت قليل بحيث تظن أنك تستطيع أن تضطلع به بغير مشقه . لكن بغض ا لنظر عن الكيفية التى تصرف فيها وقتك دون الشعور بالخجل ، فإنه لابد أنك تضطلع بشىء ما خلاله . ولكى تخصّص ثلاثين دقيقة للتفكير ، فسوف يكون لزاماً عليك أن تغضّ النظر عن شىء

اعتدت أن تقضى نصف ساعة من يومك فيه . ولا يمكنك أن تتوقع بكل بساطه أن تضيف التفكير إلى نشاطاتك الأخرى ، إذ يلزم أن تقلل أو تستغنى عن بعض هذه النشاطات الأخرى »[1].

وسر الممارسة الناجحة هو تعلمّ شيء واحد بإتقان فى الوقت الواحد ، مع الأخذ فى الاعتبار أننا نتصرف وفق العاده وليس طبقاً للمعرفة . والطريقة الوحيدة للقضاء على عادة قديمة ، أو لتكوين عادة جديدة هى أن نركز انباهنا كله فى العملية التى نمارسها .

وسرعان ما يحتاج العمل الجديد إلى انتباه أقل ؛ إلى أن نفعله أخيراً بطريقه آليه ، أى بدون تفكير ، وباختصار فإننا نكون قد كوّنا لنا عادة أخرى . وبتوصلنا إلى هذا يمكننا أن نتحول أيضاً إلى اكتساب عادات جديدة ، متسلحين بالإرادة والإصرار العاقل . إن اقتضى الأمر فكر وأشحذ الفكر ، اعمل وحاول ، ولن يلبث العسير أن يسهل . والجاف أن يلين . فالإصرار على الخروج من المأزق بثمرة هو أشهى ثمرة .

ولا يستفيد شخصان بنفس الدرجه من نفس الممارسة فقد يتقدم إنسان ما فى نفس الممارسة على إنسان أخر ولكن البطىء منهما سيلحق حتما بأخيه الأكثر سرعة بالإكثار من الممارسة ، ولن أكرر هنا أسطورة الأرنب والسلحفاة . فأى شخص يكتشف نقصاً فى تكوينه العقلى ، أو أى شخص يعتقد أنه لا يستطيع التركيز أو أن ذاكرته ضعيفة ، وبالتالى لا يمكن أن يصبح مفكراً ، يجب أن يستمد قوة من وليم جيمس الذى يقول : « اعتمد على ما أقوله لك ، فلا لزوم لأن يحس الشخص بالإحباط لدى اكتشافه لعجز لديه فى أية موهبة عقلية . ذلك إن كفاءة الإنسان الذهنية برمّتها إن هى إلا محصلة كل قواه العقلية . والإنسان معقد كأشد ما يكون التعقيد ، لدرجة أن أية قوة عقلية لن تكون لها الكلمه النافذه ، وإذا كان لأية واحدة منها الكلمة النافذة فمن المحتمل جداً أن يكون ذلك لقوة رغبته وشغفه ، ومدى الإهتمام الذى يُبديه فيما يُقدم على تناوله . ولا شك أن التركيز والذاكرة وقوة الفكر والنزعة إلى الابتكار ، ودقة الحواس ، تعتبر ثانوية بالنسبة لهذا فليس من المهم أن يكون الشخص من النوع المشتت عقليا وموزعا بين مجالات شعوره المتتالية ؛ إذا كان حقا يبدى ولعاً بموضوع ما .. ذلك أنه سوف يعود إليه بغير انقطاع

---

(١) أرنولد بينيت How to live on Twenty Four hours a day .

منسحباً من تشتتاته المستمرة ، وهو أولا وأخيراً يبذل فيه الجهد الأكبر ، وبالتالى سوف يحصل منه على نتائج أكثر مما يستطيع شخص آخر ربما يكون انتباهه أكثر استمراراً خلال فترة معينة ، ولكن ولعه بالموضوع يكون خافتا وأقل استمراراً »[1].

☐ تدريب عقلى .. التفكير الواضح :

خير التدريبات التى تستعين بها أن تخصص وقتا معلوما كل يوم تركز فيه ذهنك فى خبر ، أو قول ، استوقف نظرك فى الصحيفة التى تقرأها . ثم نحِّ عنك الصحيفة حينئذ ، وركِّز ذهنك فى النبأ مدى عشر أو خمس عشرة دقيقه . ولا تنس أن التركيز معناه أن تحيط بالموضوع من وجوهه كافة ، وتنظر إليه من جميع زواياه . قلبِّ النبأ على وجوهه كافة ، مدخلا فى حسابك بالأشخاص الوارد ذكرهم ، ونزعة كاتب الخبر ، أو محرر الصحيفة ، ومعلوماتك السابقة عند هذا الخبر ، وحاول أن تصل إلى رأى حاسم فى النبأ . داوم على هذا التدريب بانتظام ، ترى إنك سوف تكتسب أمانة التفكير ، واعتداد الأحكام التى تصدرها على الأمور .

ولكى تكتسب التفكير الواضح ، لابد لك من تقسيم فكرك وتدريبه . لنفرض مثلا أننا نريد أن نركِّز أذهاننا فى هذا الصندوق الماثل أمامنا . إن علينا أن نقسِّم هذا الصندوق إلى مكوِّناته الرئيسية ثم التى تليها ، على ألا نفرغ من واحدة حتى نستوفيها بحثا ، وألا نترك واحده بغير بحث .

مثال ذلك أننا نلاحظ أولا ارتفاع الصندوق ، وطوله ، وعرضه ، وبهذا نحيط علما بسعته ، ثم نلاحظ بعد ذلك المادة المصنوع منها ، وسُمْكها ، ثم نستطرد إلى طريقة صُنْعه ، وهل جوانبه متداخلة بعضها فى بعض أو لاصقه بعضها ببعض . وبهذا نحيط خُبْراً بمتانة الصندوق ونوعه ، وهل هو صندوق من الكرتون استُخدم لغرض عابر ، أو هو صندوق خشبى جُعل للشحن ، أو هوا صندوق ، أو هو صندوق فاخر يمكن أن يستخدم للزينة .. ومن هنا نستطرد إلى نموذجه ، وهل يُفتح من الجانب أو من أعلى ، وهل يدور غطاؤه على «مفصلاّت» أم أنه مثبت الغطاء بواسطة المسامير أو غيرها . وهكذا نستطيع أن نكوِّن فكرة واضحة عن هذا الصندوق ، وعن الغاية التى يمكن أن نستخدله فيها .

---

(١) الأستاذ وليم جيمس : Talks to Teachers in Principles of Psycholoyy .

□ طريقة تفكيرك .. كيف تفكر تفكيراً سليما واضحاً ؟ :

ولعل أفضل ما تركز فيه ذهنك الآن هو أسلوبك فى التفكير ، وانظر إليها من كافة الزوايا ، ولا تخش الانتقاد الذاتى .

هل تفكيرك غامض ؟متشكك ؟ مَّيال إلى المبالغة والتجسيم ؟ سطحى ؟ ميَّال إلى حب الظهور ؟ .

إنك إذا ركزت ذهنك فى طريقة تفكيرك لعوَّدك هذا التدريب وحده كيف تفكر تفكيراً سليما واضحاً .

والتفكير السليم ينبغى أن تنقله عبارات سليمة ، فلا ينبغى أن تكون عباراتك مبهمة أو غامضة ، أو ذات وجهين . إن أكثر الناس يحسبون أن مثل هذا الأسلوب فى التعبير عن النفس يجعلهم أدنى إلى الشهرة والعظمة ، ولكنهم مخطئون . فإن العبارات المبهمة تدل على غموض وتشتّت فى الفكر ، ولا تحاول أن تكون عميقا ، وإنما أعمد إلى روح البساطة والوضوح فى التعبير .

وإذا شئت تدريباا فعالا لكى تتعود البساطه والوضوح ، فأعمد إلى الصحف أو المجلات ، واستخرج منها فقرة ترى أنها مبهمة غامضة ، وحاول أن تعيد كتابتها فى جمل بسيطه واضحة المعنى ، وسوف ترى أنك بهذا تزداد زهواً واعتداداً بمقدرتك ، وتكون محقا فى هذا الزّهو والاعتداد .

ولا يغربن عن ذهنك ، وأنت تفكر فى موضع ما ، أن تدخل فى اعتبارك ، الآراء الشخصية ، والاعتقادات الشائعة ، فعليك أن تدقق النظر فى هذه الآراء وتلك الاعتقادات ، لترى إن كانت تستقيم أو تتصل بالموضوع أو تنأى عنه . وفوق هذا يجب أن تدخل فى اعتبارك التجارب السابقة . فما أكثر المشروعات التى أخفقت لأنها أُقيمت بناء على تجارب سابقة ، ولا شىء أكثر من هذا . مثال ذلك أن إحدى الصحف نظمَّت مسابقة لتحثّ القراء على مطالعتها . وقد اعتمدت الصحيفة فى ذلك على تجربة سابقة قامت بها صحيفة أخرى ، فنجحت وزاد انتشارها . لكن الصحيفة باءت بالفشل لأنها أغفلت عاملا كانت تتمتع به الصحيفة السابقة وكان يعوزها هى ، ذلك هو عامل «الجدّة» فتلك المسابقة كانت الأولى من نوعها حين أقدمت عليها الصحيفة السابقة ، فلما أعادتها الصحيفة الأخرى بنصها ، كانت المسابقة قد أصبحت عادية مألوفة للقراء .

إن التفكير السليم لا ينبغى أن يغفل أية ناحية من نواحى الموضوع المطروح للبحث . فما أكثر الذين حسبوا أنهم ألمّوا بأطراف الموضوع ، ومع ذلك فشلوا ، لأنه غاب عن أذهانهم عامل واحد فقط لم يدخل فى تقديرهم ! .

وترتيب النتائج على فرض خاطىء من الأمور الشائعة أيضا ، وأوسع مجال لهذا التفكير الخاطىء ، الحملات الانتخابية ، والدعايات الحزبية . وإنك لترى أكثر الواقعين فى هذا لاخطأ يبدأون أقوالهم أو خطبهم بهذه الكلمات : « كلنا يعلم .. » أو « من المعروف .. » أو « لانزاع فى أن .. » . إن القاعدة العامة أننا لا نعرف شيئاً سلفا ، فاثبت أولا صحة الفرض الذى فرضته ثم استطرد إلى استخلاص النتائج المنطقية المترتبة عليه .

□ التفكير الصامت :

ما من أحد إلا ويشعر بفترات ساحرة يكون عقله خلالها فى أحسن حالاته ويعمل بسرعة وبغير خطأ ، وينتج الأرق ، قبل أن يصل إلى حد الإعياء ، صفاءً ذهنياً ، لا يعوّضه أى قدر من التأمل العادى ، وحياة رجال الأدب تثبت هذه الحقيقه ، وعلى النمط ذاته تؤثر العزلة الطويله مصحوبة بالصوم الخفيف ، وهذه الحالة أيضا معروفة لرجال الأدب جميعا . وقد اعتاد ديكنز أن يسير طويلا مخترقا شوارع لندن خلال الساعات المتأخرة من الليل ، حين لا يستطيع أن يقابل سوى رجال الشرطه الذين يغالبون النعاس ، أو القطط الضالة ، ويعلم معظم الكتّاب أن مؤلفاتهم مسطورة فقط ، ولا تنبض بالحياة ، حين لا يستطيعون أن يفصلوا أنفسهم من أسرهم ، وينشدون الهدوء ببلدة قديمة أو بفندق ريفى بعيد حيث لا يخاطبهم أى مخلوق ، وإذا حاول إنسان ما تجربة اجتياز المحيط على ظهر سفينة هادئة دون أن يتخذ لنفسه رفيقاً من السافرين فسيجد بعد ثلاثة أو أربعة أيام أنه قد أحرز نمطا من التفكير غير النمط القديم ، فمثل هذه التجربة تسفر عداة عن عشرة أيام ، أو حتى ثلاثين يوما من العكوف الصامت على مزاولة الصلاة ، وبعض أنواع العبادات الدينية التى ترقق التفكير وتصفو به .

□ إمعان الفكر :

نعلم جميعا أن إمعان الفكر ، يأتى فى مبدئه بوحى الخاطر ، ثم يأخذ تدريجياً فى التريث الذهنى والإدراك الوجدانى ، فحالما يشعر طفل بالخوف من شىء أو الميل

لشيء آخر يقلبّ فى رأسه الصغير وسائل القرار مما يخشى ، أو الحصول على ما يرغب ، ويحدث هذا كما هى العادة ، باستحضار الصور الذهنية ، أو مجموعات الصور الذهنية ، التى تُظهر للعقل صوراً لما يحتمل أن يحدث ، وفى النهاية تبدو سلسلة متماسكة من الصور ، سيناريو بأكمله ، أكثر احتمالا من منافسيها ، وتقف قوة الفكر فى بحثها وراء الإمكانيات ، وهذا الاعتراض هو ما نسميه قراراً ، إذا تطلق الصور المتبقية أخيراً قواناً الاختبارية للعمل ؛ وموضوع إمعان الفكر ، بوجه عام ، هو دائماً اكتشاف شيء مرضٍ للعقل لم يكن هناك فى مستهل البحث ؛ ولا يوجد فرق أساسى بين هذا الاكتشاف والاختراع العلمى ؛ وقد سأل أحد الناس نيوتن قائلا : « كيف اكتشفت قانون الجاذبية ؟ فجاءه الرد : بالتفكير حوله كل الوقت » .

وينبغى أن نفرض على الأطفال بالمدرسة تمرينات فكرية منظمّة . ويرتب نظام منتسورى التعليمى فترات يحجب خلالها الأطفال وجوههم الصغيرة ويفكرون ، كما أن مدام «دى منتينو» نصحت بتكريس وقت للصمت . ويعالج التوجيه الذى أشرت إليه سابقاً طرق الانتفاع منها على أكمل وجه ، وتلاحظ هذه الباحثة المختبرة أن بعض التلاميذ «سان سيركن» يُلْحِفن فى إعطائهن الحل لجميع مشكلاتهن ، حتى ما يتعلق منها باللعب — وأن عبارة « تكرم بإخبارنا » كانت تتردد على شفاههن أكثر من عبارة «دعنى أفكر» .

سل فصلا مدرسيا أن يقوم الطلاب بشرح مسألة صغيرة عصيّة التفسير لدقتها ، ولكنها ممتعه إلى حد استرعاء انتباههم ، فسرعان ما ترتفع معظم الأيدى ، هز رأسك بالرفض وتمسّك بأن تكون الإجابة كتابة بعد التخلصّ مما أثاره السؤال من جَلَبة وانفعال ، فسوف تشاهد بعد لحظات قليلة على الوجوه البادية الذكاء بسمة معناها «كنت سأتكلم كأحمق وقد فطنت أنت لهذا» .

بينما لن ترى شيئاً قط على باق الوجوه ، وسيسعدك الحظ لو وجدت طالبا واحداً من المجموعة يقوم بأى تفكير على الإطلاق .

ولقد رأيت فصولا تعانى حقا من مران ينبغى على الرغم من ذلك التمسّك به ، والمسارعة للاعتياد عليه ، اعط الطلاب نصا باللغة العربية مطلوب ترجمته إلى الانجليزيه أو العكس وضَعْ الشروط الآتية .

١ — عدم كتابة أية كلمة لمدة خمس وأربعين دقيقه .

٢ — عدم استخدام القاموس خلال نفس المدة ، والاقتصار على دراسة القطعة

وفحص ألفاظها الصعبة حتى يمكن تفهمها .
٣ – فى ختام الخمس والأربعين دقيقه يُسْمح باستخدام القاموس لمدة ثمانى دقائق فقط .
٤ – وبعدئذ يُسْمح بالشروع فى كتابة الترجمة .
وما رأيت هذه الطريقة قد فشلت قط ، فهى ببساطة تأخذ إمعان الفكر غِلاَباً ، ولكن العقول الصبيانية لا تميل إليها حتى لتصبح المحاولة فى مبدأ الأمر محنة ، فتتحرك الأصابع الصغيرة نحو القلم والقاموس فى نفاد صبر ، ذلك لأن العادة هى التخلص من السىء بقدر المستطاع من السرعة .
ويبغض الطالب العادى إنشاء مقال لأن خبراته الماضية كانت خالية من المتعه فهو يعلم أنه بعد سطور قليلة سيأتى فراغ تخلفه الحاجه للكتابه بأى ثمن ، فلو كان قد تعلم قبل تجربته الأولى ألا يخط واحدة فى مقال حتى يكون برمته تاماً فى الذهن ، ويمكن الكلام عنه فى لغة بسيطه ولكنها واضحة ، لما عرف قط هذه الحالة المشينة ، فدعه يجد ، عن طريق التفكير المستقصى الناطق ، فى الموضوع الذى يعالجه ، إنه مامن شىء يأخذ اللب كأن يحزم المرء أمره فيما يتعلق بشىء يستحق الاهتمام ، وإن تدوين نتيجة هذا الاستقصاء ليس لها أهمية خالصة ولكنها ميسّرة قطعا ، وغدئذ سيختفى إلى الأبد شبح المقال باعتباره صراعاً فاصلاً ضد الخوار ، وتستطيع أن تطرد ، بنفس السهولة ، شبح تعالى الكتب ومنتجى الكتب بأن تبين أن الكتاب ماهو إلا سلسلة من فرادى الفصول الجاهزة على هذا النمط ، وأنك تستطيع ، على حد قول لابريير : أن تتعلم كيف تصنع كتابا ، كما تتعلم كيف تصنع ساعة .
وينبغى أيضاً إذكاء الجمال الفنى بالعقل ، ولماذانعد هزات القطار وهو ينزلق فوق القضبان أو نحسب سرعته ، فى حين أننا نستطيع أن نحصل على نصف ساعة رائعة نذكر خلالها عجيبة الدنيا الأولى ؛ الأهرامات وكيف حفظت الموميات من الفناء ، أو معبد الكرنك ...، وأبو سمبل .. أو جامع السلطان حسن ... أو الكنسية المعلّقة أو دير سانت كاترين . وبمران قليل تستطيع أن تعيد لذاكرتك تمثال «توت عن آمون» وغيره من روائع الفن المصرى القديم ، حتى لتشعر بنشوة الأنطباع الذى خلفته هذه الروائع الفنية على نفسك ، فامنح نفسك فسحة قليلة من الزمن وعندئذ تشعر بمهابة الفراعنه ، وروعة الفن الإسلامى أو اليونانى ، وستجد نفسك ، دون

أى جهد لا فى خضم مران عقلى فحسب ، بل واصلا إلى الحالة التى تكتب فيها عن الفن .

وتستطيع حياة العظماء أو أفعالهم العظيمة أن تجعل الوحدة مأهولة غير موحشة ، فحياة الرسل ، وتأتى فى القمة حياة النبى محمد ﷺ ، وحياة المسيح عليه السلام ، وغيرهم من عظماء الإنسانية على مر التاريخ ، وقد ملأت الوجود بالآف المفكرين ، وحين يصف الكتاب هذا التأمل الروحى ، ويعنون بهذا ازدواجاً من مواصلة تحدث المرء إلى نفسه عن تلك الأرواح النبيلة وحفظه لنفسه حيا بهذا الحديث ، وما من كلمة تستطيع أن تكون ذات معنى نفسى أوفر خصوبة أو أكثر دقة .

ويعرف كل إنسان مهتم بالرجال والنساء الذين لا يكون التاريخ بدونهم ، سوى نسق واحد عديم اللون والطعم ، أنهم على الرغم من موتهم ، فيهم من الحياة قدر أكثر من الآليين الذى نراهم يسيرون حولنا ، وكان حريا أن يصبح التفكير فيما يتعلق بهم هو الحافز الطبيعى لمعظمنا ، ولم يكن أى واحد من التمارين العقلية التى حاولت وصفها جهداً شاقاً بل كان أعظم ضروب الاسترخاء حيوية وتنشيطاً لأى شخص أتيحت له هذه الفرصة .

□ تدوين الأفكار :

مازلت أذكر هذه النصيحة الغالية لأحد الكتّاب الكبار ، وملخصها بأن يقرأ المرء مذكراته الخاصة ذات الطابع الروحى ويفضل منها ما كان متعلقاً بكتاب مشهور ، ويبدو أن جميع المفكرين قد فعلوا هذا ، وحالما ندرك أن أية فكرة سواء كانت ملكا لنا أم مستعارة ؛ من الامتلاء بحيث لا تتبدد هباءً ، ومن الأصالة بحيث لا يُحتمل أن تعود مرة أخرى ، فيلزمنا إثباتها على الورق ، فينبغى أن تكون مخطوطاتنا مرآة مطالعتنا وتأملاتنا ومُثلنا العليا ، ونمط معالجتنا لها فى حياتنا . ويعلم كل امرىء اعتاد مبكراً أن يسجل نفسه بهذه الطريقه ، أن ضياع أوراقه يعنى أيضاً ضياع إمكانيات تفكيره يقول «بيكون» :

« تصنع القراءة الإنسان المكتمل ، ويصنع الاجتماع الإنسان المستعد ، وتصنع الكتابة الإنسان الدقيق » ..

□ تعلّم فن التفكير من طفلك الصغير :

فى استطاعتنا جميعا حتى بدون أن تتكرر عودة اللحظات المليئة بالنشوة التى تقطع حبل حياتنا التقليدية غير المتغيرة أن ندرك فن التفكير بأن نستعيد للذاكرة عهد طفولتنا ؛ فجميع الأطفال تحت سن التاسعة أو العاشرة ، شعراء أو فلاسفة ، وهم يدّعون أنهم يعيشون معنا ، ونحن نتوهم أننا نطويهم تحت سلطاننا حتى تصبح حياتهم ليست إلا انعكاساً لحياتنا ، ولكن الواقع أنهم منطوون على ذواتهم مثل القطط ، وأنهم دائموا الاستغراق فى غمرة النشوة السحرية التى تحتويهم إزاء ما يرونه فى أغوار أنفسهم ، وثروتهم العقلية تفوق المألوف ، ولا يستطيع أن يعطينا بعض الفكرة عن هذه الثروة إلا عظماء الفنانين والشعراء الذين يماثلون الأطفال دون شك ، وقد يكون طفل صغير ذهبى الشعر ، وهو يلعب بالحديقة منهمكا يؤلف منزلا صغيراً من قطعه الخشبية ، شاعراً طوال الوقت بغروب الشمس ، فى حين أنه يدّعى أنه لا يتطلع إليها ، وإن أنس لا أنس طفله صغيرة فى التاسعة من عمرها سمعتها تقاطع حديثا لأساتذة جامعيين كانوا يتحدثون عن لاشىء ، كى توجه هذا السؤال المربك المحيّر « أمى ، ماهو الجمال ؟.. وما الذى يصنعه ؟! ».

وينسى الناس طفولتهم ، دون شك ، وهذه خسارة لا يمكن تعويضها أو تلافيها ، مهما حاولوا تصغير شأنها ، ولكنهم يظلون يتذكرونها زمنا طويلا ، ويحاولوا تخفيفها عن وعى قلّ أو كثر ، ولا مراء أنه لا يجول بخاطر واحد فى الألف بأنه كان أكثر ذكاءً وهو فى الثامنة منه الآن وهو فى الخمسين من عمره ، ولكن لا يقلّ صدقا القول بأن العلاقة التى نحسّها بين أنفسنا وبين الرجل الذى يبهرنا مؤسسة على ذكريات ساعات عظيمة أو على ذكريات الطفولة .

فلنقلّد الطفل ، فكل شىء يهمّه ويحفزه ويهزّة ويخصّه ويثيره ويهيّجه ، إنه لا يترك شيئا مزدرٍ أو بلا توضيح !

وقد يفكر الرجل منا فلا يجا فيه الصواب ويروح يقول لنفسه : « لقد تخلفت وقلّ شأنى » أو « إنى ضحيّه ، فلقد جافانى حُسنُ الطالع ..! ».

مثل هذا الرجل لا يُبخيه من يأسه إلا التفكير السليم ، الذى ينزع من ذهنه هذه الفكرة الخاطئة التى استقرت فيه ، ويحيد به عن الطريقة الخاطئة التى ينظر بها إلى الموضوع ، فهنالك سوف يجد أن ثمة مجالا كبيراً أمامه لينفع الآخرين بخبرته وحُنكته .

وأظن أن « جراى » كان على حق فى تفكيره ، حين قال : « كم من جوهرة تخطف الأبصار بأصفى الأشعة وأبهاها مستكنّة فى أغوارالمحيطاتالمظلمة التى ليس لها قرار ، وكم من زهرة استقامت على عودها لتتفتح فى الخفاء مضيّعة شذاها العطرى مع سافيات البيداء ..!! ».

والقدرة على تركيز الذهن ، وصب الاهتمام فى المشكلة التى تواجهك هى أهم مقومات النجاح ، وأولى خطوات الترويض الذهنى .

نعم ، إن التدريب العقلى من الصعوبة بمكان ، ولكنه يستحق كل مجهود يُبذل فى سبيله . قال هلفتيوس : « وليست العبقرية أكثر من تركيز الذهن » وقال فيليبس بروكسل : « إن حصر الإهتمام هو أول مقومات العبقرية ». ودعنى أضيف إلى هذين القولين قول « ا . ج . جريس » أحد رجال الصناعة البارزين : « إن صبّ الإهتمام فى العمل أو المشكلة التى هى قيد البحث ، ثم نسيان الأمر بتاتا بمجرد حسمه والوصول إلى قرار فيه ، بحيث تستعيد قوة تركيز ذهنك كاملة غير منقوصة ، من أهم الأسباب المؤدية إلى النجاح فى الحياة .

☐ أى سمات[1] تميّز المفكر ؟

الفكر هبة إلهيه لأنه مبدع خلاق . أما أولى السمات التى تميّز المفكر فهى الرؤية ، فالمفكر قبل كل شىء رجل يرى حيث لا يرى الآخرون ، ذلك لأن جدة الأشياء التى يقولها ، وطبيعتها كضرب من الإشراق الملهم ، والسحر المقترن بها ، كل هذا يصدر عن الحقيقة القائمة وهى أنه يرى ، وهو يبدو كما لو كان يعلو فوق الجماهير برأسه وكتفيه ، أو أنه يغذ السير فى طريق مرتفع ، بينما يسير غيره فى تثاقل أسفل الطريق ، والاستقلال فى اللفظ الذى يصف الظاهرة الأخلاقية لهذه المقدرة على الرؤية ، فليس ثمة ما يثير الدهشة أكثر من انعدام الاستقلال العقلى عند الكائنات البشرية ؛ هم يتماثلون فى الرأى ، كما يتماثلون فى السلوك ، وهم راضون تماماً بأساليب المجاملة المعادة المتكررة ، وهم إذ يفعلون هذا ، يتطلع المفكر حواليه ، مطلقا العنان لحريته الفكرية ، وقد يرضى بالإجماع المعروف بالرأى العام ، ولكن هذا الرضا لن يكون مبعثه عمومية الفكرة ، بل إن هذا الشىء الذى تحميه هالة من القداسة ، المسمّى «الذوق السليم المشترك» لا يكفى سببا لحمله على المشاكلة مع نمطية

(١) سمات : علامات .

الجماهير ، وأى شيء كان فى الاستطاعة أن يبدو أكثر صلة بالجنون ، فى القرن السادس عشر من إنكار حقيقة – لأنها كانت كذلك بالفعل – أن الأرض تدور تدور حول الشمس ؟ ، ومع ذلك فلم يكترث جالليليو ؛ وينبغى أن نقف مبهورين أمام شجاعته الأدبية حتى ذلك الوقت ، ولكن بعد ذلك بثلاثمائة عام ، لم يكن الموقف بأقل صعوبة على هنرى بوانكاريه أن يقرر أن الفكرة القديمة كانت تحمل من الحقيقة العلمية قدر تحمله نظرية جاليليو ، وإنكار اينشتين لنظرية استحالة تلاقى المتوازيين ، إنما هو دليل باهر آخر على الاستقلال العقلى .

لعلنا فى القاهرة نعانى من الضوضاء الكثيرة ، وما يفعله السائقون لإثارة هذه الضوضاء ، وكذلك مخاطر السرعة الكبيرة لبعض السائقين على المشاة ، وهناك المئات من أفراد الشرطه الذين يحاولون ضبط الشارع المصرى ومنع الضوضاء ، وحماية المشاة من سائقى العربات ، ولكن واحداً فقط من أفراد الشرطه النابهين هو الذى فكر فى الإجراء الأصيل العملى الذى من شأنه وحده أن يرغم السائق فى منع الضوضاء ، والإبطاء وتخفيف السرعة ، وهو أخذ آلة التنبيه منه ! .

وكل منا يسخر ، فى أغلب الأحيان ، من الخطب الرنانة الجوفاء التى تردد أصداءها قاعات المجالس النيابية ، والمهيأة دون شك للتأثير على المستمعين ، وثمة طريقة سهلة لتقليل هذا الشر إلى حدٍ كبير ، وذلك بإرغام الخطباء على الكلام وهم جلوس ، ولكن من ذا الذى يفكر فيها ؟ .

ومن المؤكد أن العالم يعيش على الكلمات التى لا يكف عن ترديدها حتى ينبرى مفكر ، أو خبرة متكررة (خبرة تحطم الغباء) ، فيصنع ثغرة فى حائط التماثل الصلب البليد .

ويبدو أولئك الذين يفكرون لأنفسهم بمظهر المتعالين الراضين عن ذواتهم ، لأنه يتعذر عليهم أن يكونوا غير راضين ، أو أن يكونوا من الضالين العابثين ، فهم يمرحون دائماً فى رياض الفكر ، ولا يسعهم إلا أن يستمتعوا بهذه الرياضة ؛ والرجال الذين هم من طراز «برنارد شو» العقلى سيأسفون حقا لو أصبح جميع البلهاء من الناس بغتة عاقلين مثلهم ، والازورار عن الضعف الخُلقى والتلاعب به دون إشفاق ، هما ضرب من المران الصحى للمواهب العقلية . ويُحتمل أيضا أن يتشبث المفكرون بأفكارهم وفرضها على الآخرين إلى حد العنت والاستبداد ، وعلة ذلك أنهم إذ يرون الحق – وهو هنا يعنى الخلاص – ويعلمون أن غيرهم من الناس لن يروه ،

فإنهم يعاملونهم كما يُعامل الراشدون الأطفال ، ويمكن استخدام موسولينى كمثال فى هذا الشأن ، ولكن المفكرين فى أغوار طبائعهم ، معلمون من الطراز الأول ، وإنه لمن الصالح أن يكرِّسوا حياتهم للدعوة إلى الحق الذى يرونه ، وبعضهم يفعل هذا فى خطب أو كتب رائعة ، وآخرون فى لغة الفنان النابضة بالحياة ، ولكن مهما كانت وسيلة التعبير ، فإن التعلق بالحق يظل مرئياً واضحاً ، ويتراءى بعض رجال الأدب كمبتكرين بسبب طبيعة تعبيرهم الممعنة فى غرابتها ، ولكن أقل جهد فى سبيل اختزال أروع صفحة من إنتاجهم لاستخلاص ما فيها من إصلاح الفكر المجرد سيبين أنه ليس لديهم ما يقولونه سوى القليل ، وذلك لعدم استطاعتهم أن ينبروا كمعلمين ، ولا مناص من أن يقنعوا بتقليد «البهلوان» الذى يلقى خطابا وهو واقف على رأسه ، مؤكداً كلامه بحركات من ساقيه بدلا من يديه ورأسه ، رجال كهؤلاء سيجدون مقلدين لا أتباعاً ومريدين ، فى حين أن المفكر — سواء شاء أو لم يشأ — قائد وزعيم .

★ ★ ★

الفصل الرابع

فن التفكير فى الإسلام

العقل فى القرآن الكريم

الإسلام يحضّ على التفكير ، بل هو فريضة لازمة لكل من يدين به ، **فهو** يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد ، ولا يذكر العقل عرضا مقتضباً بل يذكره مقصوداً مفصلا على نحو لا نظير له فى كتاب من كتب الأديان ..

قال تعالى : **﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾** «سورة البقرة»

﴿ وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾

«سورة المؤمنون»

﴿ يؤتى الحِكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ «سورة البقرة»

﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب ﴾

« سورة البقرة »

واللب — هو العقل المدرك الفاهم لأنه معدن الإدراك والفهم فى ذهن الإنسان كما يدل عليه اسمه فى اللغة العربية . ويتبين من هذه الآيات وغيرها أن اللب الذى يخاطبه القرآن الكريم وظيفته عقلية تحيط بالعقل الوازع والعقل المدرك ، والعقل الذى يتلقى الحكمة ، ويتعظ بالذكر والذكرى ، وخطابه خطاب لأناس من العقلاء لهم نصيب من الفهم والوعى أوفر من نصيب العقل الذى يكف صاحبه عن السوء ولا يرتقى إلى منزلة الرسوخ فى العلم ، والتمييز بين الطيّب والخبيث ، والتمييز بين الحسن والأحسن فى القول ... أما العقل الذى يفكر ويستخلص من تفكيره زبدة الرأى والروية ..

فالقرآن الكريم يعبر عنه بكلمات متعددة تشترك فى المعنى أحيانا ، وينفرد بعضها بمعنى على حسب السياق فى أحيان أخرى فهو الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم وسائر هذه الملكات الذهنية . قال تعالى :

﴿ ويسألونك ماذا يُنفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ « سورة البقرة »

﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾ « سورة آل عمران »

﴿ قل هو يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ « سورة الأنعام »

﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ « سورة النحل »

﴿ أوَلم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ « سورة الروم »

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ﴾ « سورة ق »

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقت ﴾ « سورة الغاشية »

﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرُز فنخرج به زَرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ « سورة السجدة »

﴿ والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ « سورة آل عمران »

﴿ وهذا صراط ربك مستقيما قد فصَّلنا الآيات لقوم يذَّكرون ﴾

﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلُمات البّر والبحر قد فصَّلنا الآيات لقومٍ علمون ﴾ « سورة الزمر »

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير ﴾ « سورة المجادلة »

﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصّل الآيات لقوم يعلمون ﴾ « سورة يونس »

﴿ قال له موسىٰ هل أتبعك على أن تُعلمّنِ مما عُلمِّتَ رُشدا ﴾ « سورة الكهف »

﴿ خلق الإنسان علّمه البيان ﴾ « سورة الرحمٰن »

﴿ الذى علمّ بالقلم * علمّ الإنسان مالم يعلم ﴾ « سورة العلق »

﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كُلٌّ من عند ربنا وما يذّكر إلا أولوا الألباب ﴾ « سورة آل عمران »

بهذه الآيات وما جرى مجراها تقررت ولا جرم فريضة التفكير فى الإسلام ، وتبين منها أن العقل الذى يخاطبه الإسلام هو العقل الذى يعصم الضمير ويدرك الحقائق ، ويميز بين الأمور ، ويوازن بين الأضداد ويتبصر ويتدبر ، ويُحسن الأدكار والرواية ، وأنه هو العقل الذى يقابله الجمود والعنت والضلال ، وليس بالعقل الذى قصاراه من الإدراك أنه يقابل الجنون . فإن الجنون يُسقط التكليف فى جميع الأديان والشرائع وفى كل عُرف وسُنّة ، وليس لأحد أن يعتذر بها كما يعتذر للمجنون بجنونه ، فإنها لا تدفع الملامة ولا تمنع المؤاخذة بالتقصير .

ويندب الإسلام من يدين به إلى مرتبة فى التفكير أعلى من هذه المرتبة التى تدفع عنه الملامة أو تمنع عنه المؤاخذة فيستحب له أن يبلغه بحكمته ورشده ، ويبدو فضل الحكمة والرشد على مجرد التعقل والفهم من آيات متعددة فى الكتاب الكريم يدل عليها قوله تعالى : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾ .

ويدل عليها أن الأنبياء يطلبون الرشد ويبتغون علما به من عباد الله الصالحين ، كما جاء فى قصة موسى واستاذه الخضر عليهما السلام .

والذى ينبغى أن نثوب إليه مرة بعد مرة أن التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت فى القرآن عرضا ، ولا تردد فيه كثيراً من قبيل التكرار المعاد . بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره ويترقبها من هذا الدين كل من عرف كنهه ، وعرف كفه الإنسان فى تقديره .

فالدين الإسلامى دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق .. فليس فيه إذن من أمر يتجه إلى الإنسان من طريق الكهان ، ولن يتجه الخطاب إذن إلا إلى عقل الإنسان حراً طليقا ..

قال تعالى : ﴿ فأينما تُولوا فثمّ وجه الله ﴾

لا هيكل فى الإسلام .. ولا كهانة .. فكل أرض مسجد ، وكل من فى المسجد واقف بين يدى الله .

وإذن يتجه فيه الخطاب – بداهة – إلى الإنسان العاقل حراً طليقاً من كل سلطان يحول بينه وبين الفهم القويم ، والتفكير السليم ..

كذلك يكون الخطاب فى الدين الذى يلزم كل إنسان طائره فى عنقه ، ويحاسبه بعمله فلا يؤخذ أحد بعمل غيره .

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ و **﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾** ..
﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى ﴾

فليس فى الإسلام إنسان ينجو بالميلاد أو يهلك بالميلاد ، ولكنه الدين الذى يوكل فيه النجاة والهلاك بسعى الإنسان وعمله ، ويتولى فيه الإنسان هدايته بفهمه وعقله ، ولا يبطل فيه عمل العقل أن الله بكل شىء محيط ، فإن خلق الله للعقل لا يسلبه القدرة على التفكير ، ولا يسلبه تبعة الضلال والتقصير ..

وهكذا يكون الدين الذى تصل العبادة فيه بين الإنسان وربه بغير واسطة ولا محاباه ، ويحاسب فيه الإنسان بعمله كما يهديه إليه عقله ، ويطلب فيه من العقل أن يبلغ وسعه من الحكمة والرشاد .

العقل فى السُّنة النبوية

● وفضل العقل فى السُّنة النبوية المطهرة ظاهر جلى ، من ذلك ما ذكر عن ابن عباس أنه دخل على عائشة ، فقال :

ياأم المؤمنين ! أرأيت ا لرجل يقل قيامه ويكثر رقاده ، وآخر يكثر قيامه ، ويقل رقاده أيهما أحب إليك ؟ قالت : سألت رسول الله ﷺ كما سألتنى عنه فقال : « **أحسنهما عقلا** » . قلت يارسول الله ! أسألك عن عبادتهما ، فقال ياعائشة : « **إنما يُسئلان عن عقولهما فمن كان أعقل كان أفضل فى الدنيا والآخرة** » .

وروى نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تعجبوا بإسلام امرىء حتى تعرفوا عقدة عقله** » .

● عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« **أول شىء خلقه الله القلم . ثم خلق النون وهى الدواه . ثم قال له اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة . ثم خلق العقل وقال : وعزتى لأكملنك فيمن أحببت ، ولأنقصنك ممن أبغضت** » .

● عن ابن عباس قال لما خلق الله العقل قال له : « **أدبر فأدبر ، ثم قال له : أقبل فأقبل . قال : وعزتى ماخلقت خلقا قط أحسن منك — فيك أعطى . وبك آخذ . وبك أعاقب** » .

ولم يكتف الرسول الكريم ببيان فضل العقل لأصحابه ، بل كان يعقد لهم

حلقات للتدريب العقلي ، لينمي عقولهم ، ويقوى فيهم المقدرة على التفكير ، ويزرع فيهم الذكاء . ويروى عنه ﷺ ، أنه سأل أصحابه يوما : « **ماهى الشجرة التى لا تُسقط ورقا ؟!** » قالوا : وهل يوجد بين الأشجار من لا تسقط ورقا؟! فطلب منهم الرسول ﷺ أن يفكروا قبل الإجابة .

فلما استعصى عليهم الحل أجابهم ﷺ : « **أن الشجرة التى لا تسقط ورقاً هى النخلة** » .. وهكذا

.. وللسلف الصالح أقوال كثيرة فى بيان فضل العقل نذكر منها :

« ما أوفى عبد بعد الإيمان أفضل من العقل »

« إن القوم ليحجون ، ويعتمرون ، ويجاهدون ، ويصلون ، ويصومون ، وما يُعطون يوم القيامة إلا على قدر عقولهم » .

« إن الرجل ليتلذذ فى الجنة بقدر عقله » .

التفكير المبدع فى أبحاث مثمرة عن الوضوء والصلاة

طبيب عالم إنجليزى يروى حكاية تجاربه العلمية التى قام بها فى معرض أبحاثه الطويلة عن الدورة الدموية . قال :

« كنت دائماً أتساءل .. إن ويليام هارفى هو الذى اكتشف الدورة الدموية .. فلماذا لم يدرس ما الذى يجعل الدورة الدموية تسير بشكل سليم .. وما الذى يجعلها تختل .. وأجريت أبحاثاً طويله على الدورة الدموية فى الإنسان فى مراحل السن المختلفة .. وأبحاثاً حول الدورة الدموية فى الحيوان .. وخرجت منها بأن الدورة الدموية لدى الحيوان تسير بشكل أفضل ؟ .. فلماذا ؟ .

تطوع من أجل أبحاثى بعض الرجال الذين ساعدونى فى مهمتى ، وعاشوا شهوراً قليلة يتخذون الوضع الأفقى الذى كان يجب أن يتخذوه .. لأنهم كانوا قد أُصيبوا بكسور فى أرجلهم ووُضعت الأعضاء المكسورة فى الجبس .. واستلزم ذلك منهم أن يتخذوا الوضع الأفقى وهم مستلقين فوق أسرّتهم .

واستنتج من أبحاثه هذه إلى أن الدورة الدموية فى الملازمين للفراش بغير مرض عضوى تسرى بشكل أفضل » .

وكتب فى مذكراته يقول :

« ليت الإنسان يستطيع أن يتخذ وضعاً أفقياً دائماً ليضمن بذلك حُسن سريان دورته الدموية .. يسير على أربع كالحيوان مثلا!! وهذا مستحيل ..

إذن فيجب البحث عن طرق أخرى – دون أن يسير الإنسان على أربع – لضمان حُسن سريان الدم فى العروق » .

وأجرى العالم الطبيب تجارب على الأدوية لتحسين سير الدورة الدموية واكتشف أن هذه العقاقير الكيميابة تنجح فى سريان الدورة الدموية لفترات محدودة ثم تعود الدورة الدموية إلى سابق عهدها ! .

جرب حَقْن الأوردة بمواد غير ضارة تساعد فى سريان الدم وكانت الدورة الدموية تسير بشكل حسن لفترة محددة ثم تعود إلى سابق عهدها ..

كان يجرى تجاربه هذه على الأدوية والحقن مع إيمانه بأن هذه الكيماويات ضارة بالجسم ! .

ثم جال بخاطره حديثا نقله إليه وأحد من زملاءه فقد أبلغه أحد أطباء أمراض النساء أن سيده كانت تُعالج لديه من العقم لأجل أن تحمل .. ولا فائدة .

وذات يوم كانت هذه السيدة تنظف (ثريًا .. نجفه) داخل منزلها عندما أصيبت بصدمة كهربائيه ، وقعت إثرها على السرير الذى كانت تقف فوقه .

وكان للصدمة الكهربائية تأثير جيد فى مسالك الحمل عندها ، فحملت المرأة بعد الصدمة الكهربية مباشرة ! .

جرب العالم الطبيب أسلوب الصدمة الكهربائية مع الدورة الدموية ، فكان يحدث صدمه كهربائية خفيفة فى الجسم .. واكتشف أنها تحقق سريانا أفضل للدورة الدموية .. لفترة فقط .

وذات يوم .. كان الطبيب يقف أمام حوض غسيل ، يغسل وجهه بماء بارد .. وخطر له خاطر .

إنه كان يلاحظ دائماً .. ولاحظ اليوم أيضاً أنه عندما يغسل وجهه فإن المياه تنعشه .. خصوصاً الماء البارد .. وأنه كثيراً ما يلجأ إلى غسل وجهه بالماء البارد إذا ما أحسّ بخمول .. فإن المياه الباردة تحدث فى الأطراف نوعا من الصدمة الخفيفة . واستمر الطبيب سنوات يجرى أبحاثه حول المياه .. وأثرها فى الدورة الدموية .. وخرج من أبحاثه الطويلة بالنتيجة التى أعلنها :

« تستطيع أن تضمن للدورة الدموية فى جسمك أن تسير بشكل دقيق يضمن حُسن الصحة والنشاط الدائم والقوة – دون إدخال كماويات داخل الجسم بأن تبلل أطراف جسمك بالماء البارد أربع أو خمسة مرات .. على فترات متساوية مقسمة على ساعات الاستيقاظ والعمل حيث يتخذ الإنسان الوضع الرأسى .. أما

عند النوم فإن الاستلقاء يضع الجسم فى الوضع الأفقى الذى يجعل سريان الدورة الدموية بشكل دقيق مُرْضٍ » .

أعلن هذا الطبيب العالم أن تجاربه وصلت إلى هذه النتيجة .. ولعل أحداً لم يخبره أن المسلمين – منذ ١٤٠٠ سنة – يتوضأون بهذه الطريقة .. خمس مرات يوميا قبل الصلاة .

فى عام ١٩٨٥ م عرض طبيب مسلم بحثا مثمر عن الوضوء أثبت فيه أن الاستنشاق يقضى على الجراثيم التى تتجمع فى منطقةالأنف فالاستنشاق ثلاثا يزيل هذه الجراثيم تماما كلما تكونت ، ويحمى الجسم من الميكروبات التى تكمن فى الأنف .. بدون استعمال أى مضادات حيوية ة .

طبيب آخر تحدث عن الصلاة .. وصلتها بأمراض شرايين المخ .

قال : إنه عادة عندما يُصاب شخص بأمراض شرايين المخ فإنه عادة يسأل سؤالا : هل المريض يصلى ؟ .

● فوجد أنه فى ٨٠٪ من حالات الإصابة بأمراض شرايين المخ يكون المريض لا يصلى .

● بينما فى ٢٠٪ من حالات الإصابة بأمراض شرايين المخ يكون المريض يصلى .

ويقول الطبيب تفسيراً لهذا :

إن الصلاة تحقق رياضه لا مثيل لها ، فالإنسان الذى يصلى الفروض فقط ، يركع ويتخذ الوضع الأفقى ٤٢ مره كل يوم على فترات محددة .

قيام وركوع وسجود .. متتالية .. تضمن تحريكا دائماً لشرايين الجسم كله .. تتفتح وتتقلص ، وتتمدد فتصبح لينة طرية تسهّل سريان الدم فيها دون عوائق صحية ورياضية .

من حديث رسول الله ﷺ : **« وجُعلت قرّة عينى فى الصلاة »** .

وقوله صلوات الله عليه : **« ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة .. وحط عنه بها سيئة »** .

والعبد أقرب ما يكون إلى الله وهو ساجد .

قال عقبة بن مسلم : **« ما من خصلَة فى العبد أحب إلى الله عز وجل ، من رجل يحب لقاء الله عز وجل ، وما من ساعةِ العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل حيث يخرّ ساجداً »** . **فأنت وأنا وكلنا جميعا نكون أقرب إلى الله عندما نسجد .**

إذن نكون قريبين إلى الله ، قريبين إلى الصحة والعافية عندما نتوضأ .. ونصلى .. ونسجد .. ونشكر الله على كل نعمائه .

الفن الجميل

لا مندوحة عن القول أن الفن الجميل يرقق النفس ، وينّمى الذوق ، ويسمو بالإنسان ..

والمفكرون فنانون بطبعهم ، يقدسون الفن الجميل ، ويتطلعون إلى الكمال الإنسانى فى أرفع صوره .. فما هو موقف الدين من الفن ؟ .

إنما يُقاس نصيب الفن الجميل من الدين بنظرة الدين إلى الحياة .. فلا يُقال عن دين إنه يحيى الفنون الجميله أو يتقبل إحياءها إذا كانت له نظرة زرية إلى الحياة ، وكان ينظر إليها كأنها وصمة زرية ، وإلى الجسد ومتاعه كأنها رجس مرذول ، وانحراف بالإنسان عن عالم الروح والكمال .

ولا يقال عن دين أنه يزدرى الفن الجميل إذا كان الجمال من مطالبه ، وكانت نعمة الحياة مقبولة في شرعة المتدين به بل واجبة عليه .

والإسلام بين الأديان قد انفرد بقبول نعمة الحياة وتزكيتها والحضّ عليها ، وحسبانها من نعمة الله التى يحرم على المسلم رفضها ، ويؤمر بشكرها .

وغيره من الأديان بين اثنتين : فإما السكوت عن التحريم والإيجاب معا ، أو التصريح القاطع بالتحريم والتأثيم ..

أما الإسلام فإنه يحل الزينة ويزجر من يحرمها ، ويصف الله بالجمال ويحسب الجمال من آيات قدرته وسوابغ نعمته على عباده .

ففى خلق الأرض زينة ، وفى خلق السماء زينة ..

﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾

« سورة الكهف »

وكل من حرّم هذه الزينة على الناس فهو آثم لا يقضى فى تحريمه بأمر الدين ..

﴿ قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾

« سورة الأعراف »

والزينة والعبادة تتفقان ولا تفترقان ، بل تجب الزينة فى محراب العبادة كأنها قربان إلى الله حيث لا قربان فى الإسلام .

﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ « سورة الأعراف »

والسنّة النبوية فيما روى عنه عليه السلام ، وفيما أثر عن حياته مرددة كلها لمعانى الآيات القرآنية فى تزكية النعمة ، وإباحة الزينة والنهى عن تحريم الأخذ بنصيب من الحياة الدنيا ، والتعبد لله بتعظيم محاسن خلقه ، ومحبة آيات الجمال فى أرضه وسمائه .. قال عليه السلام : **« إن الله جميل يحب الجمال .. »**

وقال فيما ورد من تفسير قوله تعالى : ﴿ **ويزيد فى الخلق ما يشاء** ﴾ إنه الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن ..

وقال : **« من له شَعْر فليكرمه »** .. وقال : **« إن الله يحب كل جيد الريح ، كل جيد الثياب »** ..

وأخبره بعض أصحابه أنه يقوم الليل ويصوم النهار فقال له :

« لا تفعل .. صم وأفطر وقم ونم فإن لجسمك عليك حقا .. »

وقد تواترت أمثال هذه الأحاديث فى الأثر واختلفت فيها الروايات ولكنها لم تختلف قط فى معناها ومؤداها لأن حياة النبى الكريم كلها مصداق للإيمان بحق الجسد مع حق الروح ..

والدين الذى ينظر إلى الحياة والجمال هذه النظرة القويمة السوية لا يسوغ لأحد أن يظن به تحريما لشىء من الفن الجميل ، أو نهيا عن شىء يجمّل الحياة ، ويحسن وقعا فى الأبصار والأسماع .

وإنما سبقت الظنة إلى هذا الخطأ لتشديد الإسلام فى منع عبادة الأوثان ، ومنع ما يُصنع لعبادتها من التماثيل والأنصاب ، ولم ترد فى الكتاب كلمة تنهى عن عمل من أعمال الفن الجميل . ولم يثبت عن النبى عليه السلام قول قاطع فى تحريم صنعة غير ما يصنع للعبادة الوثنية أو ما تُخشى منه النكسة إليها فى نفوس أتباعها ومن يُفتتنون بجهالتها ..

روى الأزرق فى أخبار مكة : أن النبى عليه السلام لما دخل الكعبة بعد فتح مكة قال لشيبة بن عثمان : **« ياشيبة . أمح كل صورة فيه إلا ما تحت يدى .. قال فرفع يده عن عيسى بن مريم وأمه .. »**

وهذه الرواية يقابلها أن النبى عليه السلام لم يدخل الكعبة إلا بعد أن أُزيلت منها الصور القائمة فيها أو المنقوشة عليها ، فإن حقت الرواية وصح أنه عليه السلام قد ترك بعض الصور ، وأمر بإزالة بعضها فليس فى ذلك تحريم للصور على إطلاقها ، وإن حقت الرواية الأخرى وكانت الصور قد أُزيلت من الكعبة بأمره عليه السلام قبل دخوله إليها فما فعله صلوات الله عليه فهو الحكمة التى تقضى بها ضرورة الحيطة

فى أوائل كل دعوة تُخشى فيها النكسة إلى ما سلفها من دعوات محظورة . وما من دعوة فى عصرنا هذا تستغنى عن مثل هذه الحيطة الواجبة فيما تحذره من نكسات العهود الغابرة .

والقاعدة العامة فى الإسلام أنه لا تحريم حيث لا ضرر ولا خشية من الضرر . فأما مع المنفعة المحققه فلا تحريم ولا جواز للتحريم ، لأنه فوات للمصلحة ونهى عن المباح ..

ولا نعلم أحداً من المسلمين خاصتهم وعامتهم يزوى وجهه أمام تحفة من تحف الفن حيث تؤمن النكسة إلى العبادات الوثنية ، وقد كان الشيخ محمد عبده – الإمام المصلح المجتهد – يزور معاهد الفن ويكتب عنها ، ويستحسن حفظ آثارها النادرة وتحفها النفيسه لأنها من قبيل حفظ العلم وتصوير خفايا النفس الإنسانية . على أن شبهة العبادة الوثنية تزول عند النظر إلى فن السماع – أوفن الغناء والموسيقى – لأنه من الفنون التى لا غبار عليها ، ولا تحريم لشىء منها إلا ما كان ممتزجا بالخلاعة أو مثيراً للشهوات ، فالتحريم هنا لا يخص الفن الجميل بل يعم الخلاعة والشهوة وكل ما يمتزج بالمحظورات على اختلافها ، وقد يحرم اللباس الخليع أو الحديث الخليع فلا يُقال إن هذا التحريم يمنع الكساء أو يمنع الكلام ، ولكنه يمنع ماهو ممنوع ويبيح ما عداه .

التفكير يوجب الإسلام .. والإسلام يوجب التفكير ..

هل يتفق الفكر والدين ؟.. وهل يستطيع الإنسان العصرى أن يقيم عقيدته الإسلامية على أساس من التفكير ؟ .

بعد أن يورد الأستاذ العقاد[1] هذين السؤالين يجيب :

« نعم يتفق الفكر والدين ، ونعم يدين المفكر بالإسلام وله سند من الفكر وسند من الإيمان .. »

ولكننا نود أن نضيف إليهما سؤالا آخر يتمم هذين السؤالين .. نود أن نسأل : هل يؤمن عقل الإنسان بالدين فى هذا العصر ويرى فيه دينا أحق بالإيمان به من الإسلام ؟ .

يقول الأستاذ العقاد رحمه الله : « أما أن يؤمن الإنسان بالدين فى أعماق وجدانه بمعرفة الفكر فذلك بحث طويل لا يُستقصى فى سطور ولا صفحات ، ولكنه – مع خلوص النية – يتضح جليا مبينا من حقيقة واحدة ، وهى أن الإنسان جزء من

هذا الوجود غير المحدود لابد له من صلة عميقة تربطه به أبعد غوراً من هذه الصلات الحسّية التى تحصرها العلوم المتغيرة مع العصور والسنين ، فيكف تكون هذه الصلة ؟ ..

إن فكر الإنسان محدود ينقطع دون النهاية من هذا الوجود الذى ليست له حدود ، فهل تنقطع صلته بالوجود كله عند انقطاع فكره ؟ .. أو يعلم حدود نهايته ويعلم علما بقينا أن الصلة وراء ذلك لن تكون إلا بالإيمان .

لابد أن يؤمن لأنه ذهب بالفكر إلى نهايته و لم يبلغ النهاية ، ولابد – بعد طريق الفكر – من طريق يهتدى إليه الفكر ولكنه لا يستعصيه ..» .

وإذا آمن المفكر بهذا فأى دين يختاره للجماعة الإنسانية أفضل من دين الإسلام ؟ ..

إن الإسلام دين موجود .. فالذى يشير على المسلم بدين غيره يريد منه أن يتركه ليدين بعقيدة أرفع منه فى درجات الاعتقاد وأوفى بمطالب الجماعة ومطالب الآحاد ، وهذا ما يعتقده المسلم ، فما الذى يعتقده خيراً منه إذا نظر فى الإسلام وفى سائر الأديان ؟ .

يعتقد المسلم فى الإله أنه رب العالمين ليس كمثله شيء وهو بكل شيء محيط ، ولا يحابى ذرية دون ذُرِّية ، ولا يختص بالنجاة فريقا دون فريق ، ولا يميز أحداً على أحد بغير العمل والتقوى ..

« ويعتقد المسلم فى النبى أنه رسول هداية ، يعلّم ما علّمه الله ولا يعلم الغيب إلا بإذن الله ، يخاطب العقول ولا يقسرها على التصديق بالخوارق والأعاجيب ،ولا يملك لأحد نفعا ولا ضراً إلا ما يكسبه لنفسه من خير وما يجنيه عليها من خسار » ..

« ويعتقد المسلم فى الأنبياء كافة أنهم رُسُل الله بالهداية يصدقهم جميعا حين يصدق برسالة نبيه ، ويصلى عليهم جميعا حين يصلى عليه ، يبشرون وينذرون فلا يهلك أحد من خلائق الله بغير نذير ، ولا تفوته النجاة لأنه سبق فى الزمان أو تأخر فيه ، بغير حيلة له فى السبق أو التأخير .. » .

« ويعتقد المسلم فى الإنسان أنه مخلوق مسئول عن عمله وعن نيته ، إن عمل صالحا فلنفسه وإن أساء فعليها ، يؤاخذه الله بذنبه ولا يؤاخذه بذنب لم يقترفه ، وينجيه بتوبته ولا ينجيه بكفارة لم ينهض بثوابها » .

« ويعتقد المسلم فى بنى الإنسان عامة أنهم أسرة واحدة من ذكر وأنثى ،

أكرمهم عند الله أتقاهم ، واتقاهم لله أنفعهم لعباده ، يتكاثرون بالأنساب ، ويتعارفون بالأعمال والأسباب ، فإذا نصبت لهم موازين الحساب فلا أنساب بينهم يومئذ ولاهم يتساءلون ..

ويعتقد المسلم فى الدين أنه عهد بين المرء وخالقه ، وأينما كان فثم وجه الله ، محرابه حيث أقام الصلاة بين الأرض والسماء ، وضميره حرم لا يُباح إلا بما شاء .

فإذا آمن المسلم بغير هذه العقيدة فُماله من عقيدة خير منها فيما يعتقده إنسان فى الله أو فى أنبياء الله أو فى خلق الله أو فى مشيئة الله .

وإذا قيل له لا تعتقد بالإسلام فقد قيل له : لا تعتقد بشىء ولا تؤمن بإله ..

ويحق للمسلم على الحالين أن يعلم أن التفكير يوجب الإسلام ، وأن الإسلام يوجب التفكير .

« ذلك منحى من مناحى العقل الواسعة ينحرف عنها ذو العقل الذى انتهى من بحوثه وتقديراته إلى نبذ الأذيان وإنكار المعتقدات وهى نهاية تعاب بقسطاس الفكر نفسه لأنها سوء تفكير ولا ينحصر عيبها فى سوء التقدير للضرورات التى استقام عليها بناء الجماعة الإنسانية منذ وُجدت فى التاريخ وقبل التاريخ ..» .

يُعاب على هذا التفكير القاصر أنه انتهى إلى غير شىء .. انتهى إلى العدم . وليس ما وراء الفكر عدما بل هو وجود مطلق أزلى أبدى محيط بجميع الموجودات ومنها الفكر والمفكرون ، لا يدركه الفكر بداهة ولكن ليدركه الإيمان لا ليبقى منقطعا عن العقل والوجدان والشعور ..

وإذا قلنا إن هذا الفكر القاصر يُعاب كذلك لأنه سوء تقدير لضرورات الجماعة الإنسانية فليس هذا بالعيب الهين عند ما يتأمل ويريد أن يتأمل .

إن حاجة النفوس إلى العقيدة فى الجماعة الإنسانية برهان وأى برهان .

« برهان من الواقع ليكن كبرهان الحنان الأبوى على مصلحة النوع فى البقاء . أيقدح فى حنان الآباء أنهم ينظرون إلى الأبناء بعين النوع كله ولا ينظرون إليه نظرة الغريب والمجرد من هذا الحنان ؟ ..

برهان الجماعة حق فى العقل وحق فى الواقع ، وعلى الإنسان الأمين لعقله ولنوعه أن يفطن لهذا الحق ويبحث عنه بحث المسئول لا بحث السائل الطارىء على القضية من بعيد ..

وعلى الإنسان الأمين لعقله ونوعه أن يرعى حرمه القداسة فى جماعته كما يراها

فى ضميره ، فمن سلامة الضمير أن تكون سلامة الجماعة مما يتوخاه ومما يصونه ويحميه ..

وفى العالم اليوم جماعة إنسانية تعد بمئات الملايين .. ألف مليون مسلم يعيشون بعقيدة قويمة ويعتصمون منها بحصانة قوية ..

« هذا هو الإسلام ..

بنية حية تذود عن عقيدتها فتذود عن كيانها أو تموت .. صانها الإسلام فى وجوه أعدائها فلتصنه فى وجوه أعداءه ، وأوجب ما يوجب عليها هذه الصيانة أنها تطلق للضمير آفاقه وأعماقه وتحمى للجماعة ديارها وقرارها ، وأنها لب ووجدان وتفكير وإيمان . فإن يكن للجماعة الإسلامية دين ، ولابد من دين ، فلا بديل لها من دين يهديها إلى الفكر ويهديها الفكر إليه ... » .

* * *

الفصل الخامس

إعداء التفكير والنجاح

أعداء التفكير والنجاح

إن اعداء التفكير[1] والنجاح تعيش للإنسان الطبيعي السوى بالمرصاد .. كعقبة كأداء فى طريق تفكيره ونجاحه .. وسوف نحاول معاً التعرف على هؤلاء الأعداء ، ونحاول أن نتخلص منهم ، لكى نكون إمناء فى رغبتنا لانتاج تفكير خالص من كل الشوائب .. ونجاح مثمر فلأ الحياة وهم :

١ - الانحصار الفكرى أو عُقد النقص

إننا جميعا نعرفها ، فكلما نشعر بحالة مزدوجة فى العقل ، نرى خلالها خلف شىء ساحر ، شبحاً مهدداً أو مثبطاً للعزم ، يعمل جاهداً للقضاء على الأثر الصحى الحميد الذى نتمنى ألا نفقده .

« ذاكرتى ضعيفة .. تعوزنى المثابرة .. ماجدوى ذلك ؟ .. فلان وفلان يستطيعان هذا ولكنى لا أستطيع » ... كل هذه الهواتف الصغيرة المثبطه للعزم يمكن أن تسميها «هواجس الاكتئاب» ، وهى ليست أفكاراً سوداء ، بل زرقاء قاتمة ، كما أنها ليست بالضبط انحصارات ، ولكنها معوقات طفيلية ، تندفع برمتها لتهاجم أى عمل إرادى ناشىء محاولة تحطيمه ، والقضاء عليه ، فإذا انبرى للقتال متثاقلا لرغبته فى أن يصبح عزما وطيداً كرّت الأشباح المعادية راجعة ، وقد ازداد عددها سبعة أضعاف ، وراحت تجدد هجماتها حتى ترسخ دعامة عقدة النقص : « لا أستطيع أن أفعله ، لا يمكن فعله ! » .

وليست عقد النقص دائما غراس وجود أشباح كتلك التى ذكرتها الآن ، ويكفى أن يبرز غرض أو رغبة ، غريبة عن الفكر ، أو احتمال لفكر نتتبعه ، حتى تتعطل عملية التفكير المثمر ؛ وكثيرون من الناس يعيشون حياتهم اليومية متقمصيين شخصيات غير شخصياتهم ، ولذلك فإن عمل عقولهم يفسده الجهد الدائم ويبعده عن الطريق السوّى .

---

(١) معذرة ، فلن نتعرض للأمراض والعيوب الخلقية ، والحالات الشاذة ، وسنكون بمنأى عن مدرسة فرويد ، فقط سنتعرض للأشياء التى تعترض تفكير الشخص العادى فى حالاته العادية .

والإتصال الإجتماعى باحتياجاته وإشباع رغباته – بنفاقه إذا أردت التسمية الصحيحة – مؤدٍ لعدم الإخلاص المعطل للفكر ، ويتمثل ذلك فى الرغبة فى الظهور ، بدلا من الوجود حقاً ، والتى تستطيع أن تفسد حتى عملية العقل الشرعية الأصلية .

وإذا تجاورت فكرتان فى العقل جنبا إلى جنب ، فإنهما يعطلانه دائما ، ويحدث أن نعرف أن أحد الناس أكبر مناسناً ، وتظل هذه المعرفة سنين كثيرة دون تحقيقها ، أو بعبارة أخرى دون رؤية وجه هذا الشخص ، وفى يوم أن نرى هذا الوجه بغتة ، فنصدم إذ نجده متغضّنا مسنّاً .

إننا نعيش على الأفكار التى نكوّنها لأنفسنا ونحيا بها .. رأيت رجلا ذكيا ، بل متألق الفكر أحيانا ، يذبل ويذوى لأنه اعتاد فى مبدأ الأمر أن يدّخر كل فكرة بارعة تساوره لفرصة أفضل ، وبالتدريج أصبح يضنّ حتى بإنتاج مثل هذه الأفكار ، كما قد يضنّ السمك الرعاش **(Torpedo Fish)** عن تفريغ شحنته الكهربائية مقتنعاً بأنها لابد أن تصيبه بالإعياء ، وكان تسجيل ذلك الرجل لكل عملية عقلية يشعر بها ، تدخُّلا فى سيرتها جميعا ، حتى حلّ وقت أصبح فيه مجرد حطام ، ومن المعروف جيداً أن الإسراف فى السير على نهج واحد منظم يسفر عن آثار متماثلة لأنها تصبح شراً ملازماً للإنسان كظله .

إن عقلنا مثل عيننا لابد أن يكون منفرداً ؛ لأن الوعى المزدوج يشبه محاولة رجل يريد أن يرى شيئين فى وقت واحد .

والبسطاء من الناس ، ورجال الدين ، والفنانون ، وجميع من يستحوذ عليهم هدف متحكم لا يَدَع مجالاً لشواغل ذهنية دنيّة ، والمصلحون والرُسُل والزعماء ، والارستقراطيون من كافة الأنواع ، يخلبون ألبابنا بصراط رؤياهم العقلية المستقيمة ، وعلى النقيض من ذلك أولئك لقوم المتهيِّبون ، المتخاذلون الضعفاء ، والقوم الذين فطروا على الاسترشاد لا الإرشاد ،والقوم ذوو الحساسية المهتمون بأثر تصرفاتهم على الآخرين ، المتشككون فى عمل قواهم العقلية ولا يكفُّون عن محاولة التأكد منها ، جميع هؤلاء لهم مقدرة قاصمة على إقحام أفكار دخيلة أو طفيليات عقلية ، تسد فى مبدأ الأمر طريقها ولكنها تتحول بالتدريج إلى خوف وهمى ، يعطِّل رؤياهم ، وفى النهاية يخلف فيهم ذلك الإحساس المزمن بالنقص ، أو ما يُسمّى «بعقد النقص» .

ولو كان «فرويد» و «إدلر» لم يفعلا سوى الكشف عن وجود مثل هذه العُقد ،

وتعميم الاعتقاد بأن فى استطاعة المعالجة السليمة حلها ، فإن أثرها ينبغى اعتباره حميداً .

على أن كل النجاحات العظمى تبرهن بأنه لا يمكن الحصول عليها إلا بانتهاك المستحيل ، فكلّ منا فى نطاقه ، مهما بلغت درجة تواضعه ، يمكن أن يتخلص مما حرّمه على نفسه وذلك يتطلب ؛ فضلا عن نوع من الشجاعة الانفعالية ، جهداً من التفهم الحقيقى ، وإعادة النظر فى حجُجه الفكرية الخاصة[1].

٢ – كيف تنشأ الطفيليات العقلية ؟

ا – المحاكاة والمعاشرة :

قلنا إن جميع الأطفال يتمتعون لبضع سنين برؤية مباشرة وانطباعات فورية تَظلّ أشد اللحظات حدة فى حياتهم المقبله متصلة بها ، ويمكن مقارنة هذا المدخل السحرى للحياة بسحر الفجر فى المدينة الكبيرة ، فخلال فترة حالمة قصيرة يتراءى كل شيء نضراً كما لو كان قد برز للوجود لتوه ، ولكنه سرعان ما تفسد ثرثرة وصخب حجرى الحياة المعتادة الرتيبة هذه الصورة الأولية الرائعة وتطويها الرتابة المملة ثانية .

والأطفال الصغار يفهمون الرجال والأشياء دون أى وسيط ، ويكون أول انطباعاتهم عنهم قويا إلى حد لا يحتاجون معه للعودة إلى مصدر الانطباع الرئيسى ، ولهذا يقع كثير من الآباء فى الخطأ إذ يرفضون التسليم بما للطفولة من قوة الملاحظة ، وحوالى السنة العاشرة تصبح الأشياء مختلفة فيتعرف الأطفال على المتقدمين عنهم فى السن ويحاكونهم ؛ وفى شهور قليلة ، وأحياناً بضعة أسابيع ، تستطيع ملاحظة التغيير ؛ رجل صغير ، امرأة صغيرة ، حركات مسنّين ، ضروب سلوكية معينة فى النطق أو التعبير اللفظى ، ظهور اهتمام مزيف بأشياء معينة ، أو عدم اكتراث متعمدّ نحو الآخرين .

والصبيان أكثر ميلا للظهور بمظهر الخشونة والاستهانة بكل شيء ، وأحيانا يكونون أسوأ من هذا إذا تصادف وجودهم فى بيئة سوقية . أما البنات فعلى النقيض من هذا ؛ فهن يستعدن للذاكرة عروس الثالثة عشرة كما كان ينعتها الآباء والأمهات قديما . فهذه الكائنات الصغيرة الغضة برمتها التى كانت حتى عهد حديث جداً مثل

---

(١) الذكاء : الآن سارلون ترجمه د . محمود سيد رصاص .

سُحُب الصيف الوليده الخفيفة ، التى تشعر بكل نسيم وتعكس كل صورة ، أصبحت الآن سلبية تماما ، وبمرور الأعوام ، ما لم يساعدهم شعور نبيل على الصعود إلى قمة الجبل ثانية ، فإنهم سيزدادون شبها بالجماهير أكثر فأكثر ، فيستعيرون من الملايين ، فى كسل ، افكارهم وتصرفاتهم ولغتهم .

ماذا ينبغى عمله ؟ هذه هى المشكلة برمتها ، ذلك لأن أى شىء يتسطيع أن ينقذ الطفل من المشاكلة من شأنه أن يجعل كلامنا قادراً على أن ينتج أفكاراً خاصة به ؛ ويلزم تعليم الأطفال ، ولكن بجانب هذا يلزم تركهم ليقوموا بتعليم أنفسهم ، وأن تزداد المدارس اتجاها ، لمنح الأطفال كلَ الحرية العقلية التى يستطيعون استخدامها ، فالسلوك الجماعى متأصل تماماً حتى ليتسحيل أن يفلت منه إلا العبقرى ، وفى كل اقطار العالم ، وعندنا فى مصر ، يطرون المحاكاه مع قدر معين من النفاق : « انظر إلى والدك – تصرف مثل الوالد – فكر فى الآخرين لا فى نفسك – دعهم يتحدثون ؛ سيحبونك إن فعلت – لا تصرّح دائماً بكل ما تفكر فيه ؛ ستؤذى المشاعر ولن يحبك أحد » .

ولا حاجة للقول بأن معظم الأطفال بإعطائهم العالم على ماهو ، قد أشقاهم الحظ فى البيئة المحيطة بهم أكثر مما أسعدهم ؛ فحين يكونوا فقراء ، ويشعرون برثاثة ملابسهم ، وسوء تنشئتهم ، وبصفة عامه أدنى شأنا من غيرهم ، فإنهم حرّيون بأن يخضعوا صاغرين للسلوك الجماعى ، دون اعتبار لما قد تكون عقولهم متسمة به من تفوق ؛ وحين يكون لهم آباء أغبياء فأسئلتهم ، إن كشفت عن أية أصالة ، سيساء فهمها وتُقابل بالسخرية ؛ كذلك ليس من غير المألوف أن نسمع أن الدين ، وهو المنبع الأصيل الذى يسمو به الإنسان فوق ذاته ، يستخدمه الكبار كوسيلة لتحطيم الأطفال فى إخضاعهم للسلوك الجماعى ، وأنه ينبغى على الأطفال الصغار الطيبين أن يقنعوا بتنفيذ ما يُطلب منهم عمله ؛ وهكذا فاتجاه ميول الإنسان الفطرية للمحاكاة ، بكراهية الجماهير للتفوق والبروز ، يعمل حتما على طحن الفكر واستئصاله مخلفا وراءه جهاز الحاكى البشرى فحسب .

والمعاشرة غريزة تكاد تكون صنواً للمحاكاة مع ميل لإذكائها ، وفى الاستطاعة إثبات هذا بتقديم مئات من الأمثلة ، وليس ثمة شاهد على سلطان المعاشرة أكثر روعة من التفاتنا لتقسيمات الزمن ، والتقويم الزمنى والساعة لهما السلطان الأعلى ، فإذا اختفيا انهارت المدنية كما نعرفها ، ولكنهما وإن كانا يمكناننا من اللحاق بالقطار ،

وتحصيل قيمة قسائم الأسهم والسندات المالية فإننا أيضاً ضحاياها ؛ وليست فقط الثوانى الضئيلة النشطه على حد تعبير موباسان ، تقرض كالفأر حياتنا ، ولكن فى كل عام يقع علينا عيد ميلا آخر كجلمود صخر ، بينا تكون فكرة السن ، كنقيض للشباب ، شبحاً عملاقا ويقول أوسكارا وايلد : إن مأساة السنين من الناس هى فى إحساسهم بأنهم شباب ، أعنى أنهم يشعرون حقا كما قد يشعر الشباب إذا قدّر أن جعلتهم تعويذة سحرية يتخيلون أنهم من الشيب ، ولا توجد هنا تعويذة شريرة ، بل فقط ساعات وتقاويم زمنية وأعوام ميلادية على كل مستند بشرى نمسه ، وإذا تيسر محو هذه ، أمكن تغير الأشياء فى الحال .

وتنتج السخافات كل يوم عن الجهل أو المعرفة الناقصة ، وسرعان ما تنشرها الصحافة ، ووجودها توازن إيجابى ، فهى تجعل التفكير مستحيلا حتى تشير الوقائع إلى أن الفكرة المرضية فى ظاهرها كانت نتيجة معلومات ناقصة ؛ ويقول الناس إنه لا مناص من نشوب الحروب لحين تأسيس عُصبة الأمم ، والأمم المتحدة التى مضى على تأسيسها السنين ومع ذلك تنشب الحروب .. !، كذلك يقولون إن السلام لا يمكن تعكيره بعد الآن حتى يدفعهم إخفاق مؤتمرات للسلام إلى اتخاذ سياسة أخرى ، فعبارة قصيرة حاسمة من شأنها أن يعمد لتكرارها قوم يتلهفون لبعض التصنيف فى الوقائع التى يشاهدونها ، وفى بضعة أيام قد تحول الصحافة هذه العبارة إلى شعار لفظى يقف وراءه صف كامل من النتائج العملية ؛ ومن ذا الذى يستطيع أن يذكر يمكن أن تسببها عارة «اقتفاء أثر السعادة» فى مدينة كالقاهرة مثلاً ..! .

ب – التعلم فى المدارس :

أليس من المفارقة ، إلى حد فساد الذوق ، أن يتحدث المرء عن التعليم فى المدارس كمعوق للتفكير بدل أن يكون عوناً له ؟! ليس فقط عن طريق سلوكه ولغته ، ولا حتى عن طريق معلوماته ، بل أصلا عن طريق قدرته على مقاومة فكر رجل آخر ودفاعه عن آرائه الخاصة ؟ أليس صدقاً أننا لا نعجب قط حين نلاقى شاباً متألقا ، ونسمع أنه تلقى تعليمه بإحدى المدارس الإنجليزية العامة العظيمة ، أو إحدى مدارس الليسيه ، أو بإحدى مدارس (الجمنازيم) الألمانية الشهيرة ؟ والواقع أن كل الفلاسفة من أفلاطون إلى هربرت سبنسر ، تضم فلسفاتهم فنا للتفكير مع بحث فى

التربية والتعليم ، وبهذا يتبين أن ثمة ما يجعل أحدهما متعلقا بالآخر ؛ وقد أنتج هوراس مان وتشانتج فى الولايات المتحدة سلالة هائلة من الناس مقتنعة بأنها تستطيع فقط رفع ديمقراطية بلادها إلى الوعى الصحيح عن طريق التربية والتعليم ، وكلما فكر الإنسان أكثر ازداد تقبله للتفكير ، ولا جدوى من التربية إذا لم تكن هى الإبداع المنهجى لعادة التفكير .

وعلى وجه التحديد فالتربية من الوجهه النظرية هى تدريب عقلى يستهدف مزيداً من المرونة الذهنية ، بيد أن المشكلة هى ما إذا كانت التربية من شأنها ألا تنهك العقل بدلا من أن تدربه ، وهل الناس بوجه عام راضون عن التربية التى تلقوها هم أنفسهم أو يرونها تُعطى لأطفالهم ؟ ألا يشتكون منها طوال الوقت ؟ إنه لممّا يسترعى النظر أن رابليه ومونتانى وفنيلون وروسو ، وكذلك معظم رجال التربية الذين ظهروا فى القرن التاسع عشر يقفون ضد المعلمين ، ولعل هذا راجع إلى أن معظم هؤلاء النظريين لم يحصلوا على أية خبرة قط عن هذا الشىء الصلد غير الأليف ، وهو الفصل ، وأنهم يتصورون أن ماهم عليه الآن كانوا عليه فعلا وهم فى الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من العمر ، ولكن هذا عائد أصلا إلى أن تفوقهم العقلى يعزو ما يحسونه من ضروب العجز إلى الوسائل الرذيئة التى كانوا ضحية لها فى طفولتهم ، والمعلمون الذين يسفهون – ولهم كل الحق – المصلحين الذين تستحوذ عليهم فكرة سخيفة بأن الفصل شىء آخر عدا الشخص غير المختبر الذى لم يسلس قياده يوافقون ، على الرغم من هذا ، على أن وسائل التعليم القائمة غير جيدة ، وأن محاولاتهم واختباراتهم وإحصاءاتهم التى يستخدمونها لإثبات وجهات نظرهم تملأ مكتبات برمتها ، وما دامت هذه هى الحقيقة فمن الصعب دحض النتيجة بإن التربية هى فن التفكير كما ينبغى أن يكون ! .

ومع ذلك فالرأى عندنا أنها قد تكون أسوأ من ذلك ، ففى سن الطفوله ، حوالى العاشرة ، حين تكون الانطباعات غائرة كما هى خفية مؤذية ، يمكن أن تنتج التربية غير المربية طفيليات عقلية ، وهذه حرية بأن تسفر بعد حين عن عقد نقص ، أو – أسوأ من ذلك – تستطيع أن تشوه نظرتنا برمتها إلى الحياة . وللتربية فى كل قطر أخطاؤها التى قد تملأ البحوث التى تترى مكتبات بأكملها ، ولزام علينا أن نضع حدوداً لأنفسنا ، ولكن الأمر لا يستلزم وقتا طويلا لإظهار أن التربية بالولايات المتحدة مسرفة فى إصرارها على أن تكون عملية لا نظرية ، وأنها تخلف فى ذهن

التلميذ فكرة بغيضة بأن الثقافة إنما هى ضرب من النفع أو لون من التسلية للقلة من الناس ؛ فى حين أن التربية فى فرنسا هى نقيض ذلك وهى ترق بالثقافة فوق العمل إلى ارتفاع تبدو معه متع العقل المجردة أكثر أهمية ، إلى حد بالغ ، من الواجبات العملية للحياة ، وفى الحالين تتشتت القدرة على التفكير السليم ، وقد يصبح من الضرورى قضاء عمر بأكمله لتصحيح هذا الخطأ الأولى .

وما زالت التربية فى أمريكا على نطاق واسع ضربا من تربية الرواد أو أبناء الرواد ، وغالبا ما تكون المدارس الأمريكية فى الريف ، فى الضواحى الطلقه ، لأن الحياة الأمريكية البدائية كانت حياة ريفية . وأبناء المدارس فى أمريكا هى أبناء الرياضه ، ومن المأكد أن اللياقه البدنية هى ، بقدر ما ، فن من الفنون ، وكثيراً ما تزيد النساء قيمة هذا الفن برشاقتهن ، وحين يفعلن هذا فإنهن يحصلن على نتيجة فنية حتى ولو كن جاهلات . ولكن سيادة الرياضة البدنية وعلتها فى المدارس والحياة العامة والصحافة لا تؤدى فحسب إلى استبعاد ما هو أهم أو ما ينبغى أن يكون كذلك ، ولكنه يخلق جواً تبدو فيه هذه الأشياء الهامة تافهة ، أو حتى توصف بلغة سوقية بالغة التحقير ؛ أما ما يبدو هاما فهو حياة الهَرج والمَرج ، مع نشوة تشديد الهجوم على الآخرين أو عكس ذلك ، وقهر أحد أو شىء خلال هذا الهجوم ، وكل هذا ، داخل حدوده ؛ يمثل طريقة بارعة للنظر إلى الحياة ، ولكنه ليس ثقافة .

والمدرسة مكان عليك اجتيازه قبل دخولك الحياة ولكن التعليم فيها لا يؤهلك للحياة ، وما نسيمه بالثقافة عرضة لأن ننظر إليه ، فى مثل هذه البيئة على أنه ضرب من التخصص وليس من مستلزمات الحياة التى لا غنى عنها بأى حال من الأحوال . وقد تكون هذه المعرفة المتحصلة لونا من الرياضات . والخلاصة أن فكرة الثقافة فى العقل كثيراً ما يطمسها شبح انعدام الفائدة . والتفكير مع مثل هذه العقبة المعوقة ، صعب دون شك .

وتبدو الوسائل الميسَّرة كما لو كانت عقيدة لا تحتمل الجدال ، فالميسره أو السهلة هى الكلمة التى يسمعها المرء كل حين فيما له علاقة بفن التعليم ، فتسمع ، مثلا «تيسير قواعد اللغة العربية» ، وليس فى الأستطاعة جعل قواعد اللغة العربية سهلة ، يستوى فى ذلك كل اللغات الحية ؛ إنما فى الاستطاعة ، بل ومن الواجب جعل هذه القواعد واضحة وممتعة . وقلمّا تفوت على الشاب الريفى فرصة التفوق فى قواعد اللغة العربية ، على غيره من شباب المدينة ، بسبب رجولته المبكرة ، فهو لا يفكر

فى هذه القواعد كشىء صعب أو كشىء سهل ، بل كشىء على كل إنسان أن يتعلمه وهو فعلا يتعلمه .

فما هى الدعامة الأولية النفسية التى يُحتمل أن تخلقها هذه الوسيلة التى يعوزها النشاط والتشويق ؟ .

جلى أنها ستسفر عن شباب يتهيبون دراسة اللغة العربية ، وهم فى الجامعة . وقد يشتد الخطب فتبدو فكرتهم عن العربية الفصحى كلغة أنها ترف جامعى ، وكما يبدو لمعظم الناس ، أى بمعنى أنها شىء ليس من المتوقع أن تلم به وقد تقرأ لشاعر ، ممن يبدو غير قليل ، من دعوى المعرفة والرسوخ فى علوم اللغة العربية ، فترى أبياتاً من الشعر ، إن جاز لك أن تسميه شعراً ، تعج بالكثير من أخطاء اللغة ، وهذه هى النتائج التى يسفر عنها جعل قواعد اللغة العربية سهلة ، وإنما يجب أن تكون واضحة وممتعة .

وتلحق النزعة النفعية فى التربية والتعليم بالثقافة من الأذى قدر ما تلحقه تلك الوسائل المزعومة بالدراسة ؛ وإن إيثار الفروع العلمية التى يمكن تحويلها إلى مستند مالى معجل هو بالتأكيد ظاهرة لهذه الروح النفعية ، ومثل هذا تلك الطريقة العملية المجردة لتعليم اللغات الحديثة المنتشرة بمعظم المدارس الخاصة ، وكذلك انعدام كل ضروب التعليم الفسلفى بالجامعات . فإذا تحول التعليم إلى الغدو وراح يسوق الوسائل التجارية ويحشو بها العقول فإنها ، حتى ولو كان أصحابها من النخبة الممتازة ،سوف تستبد بهم طفيليات النفعية بأى ثمن ، ومن ثمة تتبدد قدرة التفكير فى مصطلحات الجمال .

والآن دعنا نتذكر صبينا الصغير فى التاسعة أو العاشرة من العمر ، ملهما حتى ليحسده فطاحل الشعراء ، ومفعما بحب الاستطلاع الفاحص حتى لتعجز الفلسفة عن ملاحقة أسئلته ؛ ما الذى يؤول إليه أمره حين يغادر المدرسة ؟ .

إن الإفراط فى الرياضة البدنية يجعله يصبح شابا قوياً فارع العود ، كله عضلات ورغبات ، أما التفريط فيها ، فتجعله شاباً نحيلا ، كما أن الإثقال عليه بألوان من التعليم الذى لا يؤهّله ، للحياة ، بدعوى تثقيفه ، فتجعله كله ذهن وغير معد للحياة على الإطلاق ، معرضًا للعجز عن التمييز بين الأفكار والحقائق وبين الألفاظ والأفكار ، وكلاهما سيىء الإعداد ! .

فينشأ الأول وذهنه ملىء بالثغرات العقلية ، مذبذب بين الثقة والتهيب دون تستر

أو خفاء . أما الثانى فتسربله غلالة من التكلف والتصنع مالم يخلصه دينه أو حبه لوطنه أو أى دافع نبيل آخر ، وكلا الرجلين سوف تستبد به أفكار يئته دون أفكاره الخاصة ، والتعليم الذى لن يجدى فتيلا مالم يكن فنا تجريبيا للتفكير سيكون محط اللوم لهذه النتيجة ، فما هو هذا التفكير الذى تبتغيه ؟ .

إنه التفكير الذى لا يلغى دور الشعور (العاطفة) ، بل يجتهد فى تربية هذا الشعور ، وتوجيهه وجهة صحيحة حتى يكبح جماحه عن إصدار القرار الارتجالى الذى يفتقر إلى الدراسة العميقة . وهذا الأسلوب هو السبيل الأمثل لتنمية مهارة الإدراك ، والارتقاء بها ، وتوسيع آفاقها ، والوسيلة الملائمة التى تفضى إلى التفكير الإبداعى (التفكير الإحاطى «الجوانبى») الذى يفتح طرقا جانبية للتفكير خارج النمط المألوف ، ويقوم على الإحاطه بجميع جوانب المشكله المطروحة على بساط البحث قبل أن يتخذ قراراً بشأنها .

على أن التفكير الذى يرتكز على أهمية توسيع الإدراك -- من خلال أدوات محددة لتعليم التفكير ، وتحقيق الإدراك السليم لأبعاد المشكلة – إنما يكون بالعمل على «توليد» معلومات جديدة أكثر من المعلومات المعطاة .

فالتربية فى حاجة دائماً إلى فتح أفكار ومنهجيات جديدة ، تتيح للتربيون بناء ناشئة تتحلى بالعقل المنهجي ، لكى تنأى عن الأسلوب التلقينى الذى لا يفرز أجيالا قادرة على التصدى لحل المشكلات الطارئة ، وليس هناك وسيلة أجدى من «تعليم التفكير» لأبنائنا لتجويد ذكائهم ، ورفع مستوى قدراتهم العقلية إلى المستوى المنشود .

□ للمعلّم .. نقاط على طريق الإبداع :

● شجع مبادرات الطلاب فى التعليم الذاتى وتقدير مبادراتهم الخاصة لأداء عمل ما دون تكليف مسبق .

● أشحذ قدرتهم على استشفاف المشكلات واكتشاف العيوب وأوجه النقص فى الأشياء والمواقف والنظم .. إلخ .

● انتهز كل الفرص الممكنة لتأكيد الحاجة إلى الإبداع فى نفوس الطلاب ، واختلق المواقف والمشكلات ، وصور التحدى العقلى التى تقتضى من الطلاب ممارسة قدرتهم على التفكير الخلاق .

● أعمل على توفير كل المصادر الممكنة وتسخير كل الإمكانات المتاحة فى

البيئة المدرسية أو خارجها ، لتيسير الأداء العقلى المبدع من جانب الطلاب .

● ثمّ قدرتهم على النقد البنّاء ، وليس مجرد النقد .

وتبقى كلمة ..

فالواقع أن كل ما ذُكر عن دور المعلم فى تنمية التفكير المبدع فى صفوف طلابه ، يمكن أن يكون حديثا لا طائل من ورائه إذا غاب عنصر مهم فى مواقف تنمية الإبداع هذه وهو الاتجاه الإيجابى فى شخصية المعلم ذاته نحو الإبداع ، أى تقبله للإبداع فى كل صوره ومجالاته ، والتسليم بكل متطلباته ، وأهمها : حرية الفكر والرأى والتعبير دون تهديد أو خوف .

إنه بغير ذلك يصبح كل ما يبذله المعلم فى هذا السبيل ، جهداً ضائعاً لا جدوى منه .

إن التعليم الناجح للتفكير ، مرتبط بالنظر إليه على أنه مهارة ينبغى لها أن تُنّمى بالتدريب والمران ، وهو أمر يعتمد ، إلى حد كبير ، على وجود المعلم الذى يهتم بالموضوع ويؤمن بأهميته بما لا يسمح بتناوله على سبيل التجربة المؤقتة أو الهواية . وهو أيضاً موضوع يستحق أن يشغل – كغيره من المواد – موقعا خاصا به فى الجدول المدرسى .

٣ – آفة الجدل .. المحادثات الفارغة والثرثرة :

يقول العقاد رحمه الله[1]: « ويؤخذ من أخبار الأمم التى امتُحنت بالمنازعات الجدلية أن هذه الآفة مرض اجتماعى تتشابه أعراضه فى الأمم ، ولا تنحصر فى اليونان أو بنى إسرائيل ، فلا يزال الجدال حيث كان مقترنا بأعراضه الوبيلة ، وأشهرها وأوبلها ثلاثة .. وهى إغراء الناس بالمماحكة بالقشور دون الجواهر واللباب من حقائق الأمور ، وإثارة البغضاء والشحناء على غير طائل ولعا بالغلبة والاستعلاء بدعوى العلم والصواب ، وإشاعة الخلاف بين الآراء جماعة بعد جماعة إلى غير نهاية يقف عندها ذلك الخلاف ، فتنقسم الأمة إلى شيع ، وتنقسم الشيع إلى فرق ، وتنقسم الفرقة إلى شعب وفروع حتى لا تبقى فئة واحدة على رأى واحد وإن قلّت فى العدد وصغرت فى منزلة التفكير .

ولما انتقلت هذه الآفة إلى الأمم الإسلامية فشت فيها هذه الأعراض جميعا ولمس الخاصة والعامة أضرارها فى بيئات العلم والدين .. تنبّه لهذا بعض من علماء المسلمين

---

(١) التفكير فريضة إسلامية للأستاذ العقاد .

فمنعوا الأشتغال بالجدل سداً للذرائع ، واتقاءً الفرقه التى تبلبل الأذهان ، وتفسد القلوب ؛ وتجر إلى هذه المشكلات أهل الفضول والبطالة ، فيوبقون معهم طوائف الأبرياء من أهل الجدّ والاستقامة الذين لا طاقة لهم بالمنطق ولا بالجدال» .

والمحادثات الفارغة هى ضرب آخر من الضياع ، وهو أمر معروف جداً ، ومن سوء الحظ لا مفر منه حتى إنه لمن غير المجدى أن يتفوّه المرء عنه بأكثر من كلمة ، يقول باكون : « يصنع تداول الحديث رجلا مستعدا » .. مستعداً لأى شيء .

ويبدو أن الأجداد كانوا أكثر اتزانا ، فقد كانوا لا يتكلمون إلا حينما يكون لديهم شيء يقولونه ، ويبدو أن معيار تقويمهم لما كان يستحق القول ومالا يستحق هو نفس معيار أفضل كتّابهم ، ومن ثمَّ جاءت قوة أحاديثهم . وحين يهتدى كاتب ؛ حتى لو لم يكن من الطراز الأول ، إلى خطة يقصر فيها محاوراته على العبارتين أو الثلاث القصيرة التى سيُنهى بها المحادثة أشخاص متزنون فإنه سيخلف أثراً قويا غير مرتقب .

والآن فكرّ فى الهراء الذى تسمعه فى « حجرة التدخين » ، أو فى شقشقة اللسان الصبيانية الفارغة التى تسمعها فى الأندية » أو فى الثرثرة المغامرة الموشاة بلمحة من مضاء الفكر التى نسمعها فى قاعات الاستقبال .

وليس لهذا نهاية إلا السوداوية ؛ فالإنسان يولد خاليا من الأوهام أو عقد النقص ، وحائزاً على موهبة الملاحظة وجمع الصور الذهنية التى ترعى التفكير وتنميّة ؛ والحياة بما تحويه من مثل هذه القوى المساعدة – ظاهريا – كالتعليم والأدب تدمر هذه النزعة الفطرية ، كما يدمر صقيع الشتاء براعم الأزهار ، وتحل المحاكاة والتوافق الخسيس مكان الابتكار .

إن الجنس البشرى شبيه بمدينه طمرها بركان ! ، تغطيه قشرة سميكة تربض تحتها بقايا الحياة الصحيحية التى طواها النسيان – ولا يضل الشعراء والفلاسفة طريقهم قط إلى إحدى الحجرات المطمورة التى عاشت فيها الطفولة يوما فى سعادة دون أن تفطن لها ؛ ولكن الملايين لا تعرف شيئا سوى طبقة الحمم السميكة من العادة والتكرار ، ولفيف قليل من الناس يخبرهم بما يلزمهم أن يفكروا فيه فيفكرون فيه .

٤ – الأحلام واضطراب العقل :

قد تكون الأحلام قريبة من الاستسلام ، لأنها تنأى بصاحبها عن الانتباه ،

وتبعده عن الاستقرار النفسى ، كما أن الفكر المبعثر المتشتت مضيعة لكل جهد ، إنه الإضعاف الروحى . كل هذا من باب الأحلام . فالحالم يتصور ويتخيل دون أن يراقب ويلاحظ ، والمجارى لأحلامه يفقد القوة والفعالية ويؤدى عمله مكرها ، أو يؤديه أداء الآلة ، أو يؤديه وكأنه فى حلم .

ويجب أن نفرق بين حلم وحلم ... فهناك أحلام لا ضير منها — أحلام مستقبل الأيام ، أحلام اليقظة والوعى ، أحلام يبحث فيها الإنسان بكل تنبه عن نتائج أعماله ، عن مصيره ويتمنى فيها كل خير لجهوده ، يتمنى النجاح .

إنها أحلام الواقع لا أحلام الخيال ، لا أحلام تعيق وتؤخر ، وليست أحلام تميت وتقتل .

وما علينا متى كانت أحلامنا من النوع الضار إلا شغل أنفسنا بالأعمال المفيدة ، فلا نرتاح إلى بطالة ، ولا نهنأ بكسل وخمول .

وهذا لا يتيح لنا الوقت للتفكير التافه ، فنحتفظ بانتباهنا ولا نبدد قوة ذهننا فى مالا طائل تحته .

إن الأحلام كالآلات الكاذبة .. كالوهم .. الأحلام كالمنحدر للنفس والجسم والروح .

٥ – اللّهو :

لا بأس عليك من تمضيه بعض الوقت فى اللهو ، بل لا مندوحة لك من هذا .. فالابتعاد قليلا عن العمل ينعش القلب ويجدد الطاقة ومن المأثور عن النبى ﷺ قوله :
«روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كلّت عميت» .

بشرط أن يكون اللهو المعتدل المتزن الخالى من المجازفات الماليه والميسر والرهان .

لأن القمار عاقبته خراب ودمار ، فما من مقامر قيل إنه ربح ، كل مقامر خاسر .

ولأن القمار يصرف الفكر والهمّة عن الهدف الأساسى للحياة ، عن هدف النجاح ، فلا يعود هناك وقت إلا للتفكير فى خسائر القمار وأرباحه .

فالوقت ثمين ، وقمين بمن يسعى إلى النجاح ألا يبدده ويهدره .. ليلعب .. يجب أن يلهو كما قلنا ، لكى يحافظ للحياة على ألوانها الزاهية ، ولكن يجب أن يعمل ويقدح زناد الفكر حتى يبلغ ما يطلبه لنفسه ولأسرته .

وليس العمل تضحية كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان ، وليس اللعب المعتدل مضيعة .. إذاً ليكن العمل والنجاح رسالتك فى حياتك ، وليكن اللهو متى أخذت به فى فترات ، سليماً لا يشكل العائق والمؤخر .

٦ - وقت الفراغ :

نحن لأوقات العمل فهى تملكنا .

غير أننا نملك أوقات الفراغ ، ونحن نتصرف فيها كما يحلو لنا .. وعلى ذلك يمكننا أن نقول أن وقت الفراغ هو ميزان قوتنا وقدرتنا على التحرك ، بل هو ميزان معرفتنا بقيمة الوقت وأهميته .

ولا مراء أن قيمة الوقت هى قيمة الحياة نفسها .. لأن الإنسان الذى يعرف قيمة وقته ، يعرف من غير شك قيمة حياته ، وبالتالى يكون جديراً بالحياة ، لأن الوقت ثروة ، ومالك الوقت يملك أعظم ثروة ، وهو حر مستقل ، وهو سيد لا مسود .

والإنسان التافه المتلاف هو الذى لا يعرف كيف يملأ ساعات الفراغ ، والكثيرون لا يعرفون فهم يتلفون الوقت ، لأنهم يجهلون قدره ولا يعطونه حقه ..

انظروا إلى الناس على المقاهي .. انظروهم فى الحانات .. انظروا إلى الشباب فى الطرقات يتسكعون بلا هدف أو غاية .. انظروهم كيف يبددون ثروة الوقت ..

آلاف من الشباب القوى ، الآف من الرجال الأقوياء ، يصرفون الساعات فى اللعب ، يصرفونها فى الشرب والتدخين ، يصرفونها فى التلهى ، فى مراقبة الناس ، فى التمتع بالنظر إلى الفتيات..

وللأسف قلمّا نجد إنسانا يستطيع أو يريد أن يجد ما يشغله فى وقت فراغه .. فوقت الفراغ عندنا معناه الفراغ ، ولهذا نرى الإخفاق .. ولهذا نجد أنفسنا فريسة الفشل لأننا فارغون .

وقت الفراغ إن كنا لا نريده أن يكون عائقاً ومؤخرًا يجب أن نستفيد منه ، أن نجمع المعارف ، أن نغربلها . وكل هذا نفعله فى وقت الفراغ .

ومع ذلك فوقت الفراغ ضرورى للإنسان ، لكى يستعيد فيه نشاطه وطاقته .

ففيه متسع لكل إنسان لتجديد قواه ، وشحذ همّته ، وإلا فمن كان يمتطى متن الأسفار ، ويجوب البحار والقفار ، ويعود بعد أن يكتشف العجب العجاب ؟! .

إذاً فوقت الفراغ ضرورة .

لابد من وقت الفراغ .

ولكن لابد لنا من التصرف فيه تصرفا حسناً . لابد لنا من المحافظة عليه ، لأننا نستطيع به أن نحصّل خلاصة التجارب ، وخلاصة المعارف ، وخلاصة الفكر فى الجو الحر المستقل .. والنجاح الذى يزين الحياه .

٧ – السنون الحاسمة :

السنون الخمس والثلاثون هى السنون الحاسمة فى عمر الفرد ، وفى مستقبله ، فيها ينبغى أن ينظم عقله وتفكيره . فيها يجب أن يتعلم كيف يوجه الدفة ، وأن يركز الطاقة ، وأن يحدد الإرادة .. والذى نراه يحزّ فى الصدر كثيراً ، ففى هذه السنين يهدر الإنسان ذروة قوته . فيلهو كثيراً ، ويجدّ قليلا ، والذى يربأ بنفسه عن هذا العبث العقيم نجده غير هؤلاء ، فهو يجدّ ويكدّ ويجتهد ، وهو بذلك لا يضع فى طريقه العقبات والمعوّقات .

★ ★ ★

الفصل السادس

أصدقاء التفكير والنجاح

- قوة الذاكرة
- التركيز الذهنى
- التسامى الخُلُقى شرط من شروط التفكير الرفيع
- الأفكار الرفيعة بين طيّات الكتب
  - وماهى تلك الكتب .. ؟!
  - وأية كتب ينبغى أن نطالعها لتهيئة التفوق لنشاطنا الفكرى ؟
- الملاحظة ...
  - عوّد نفسك على الملاحظة تنمّى عقلك وتزرع فيه الذكاء .

أهمية تدريب الذاكرة

لا ينتظر أحد أن يكتسب عقلا مدرباً فعالاً ما دام يهمل ذاكرته ، فالذاكرة كالعضلة إذا داومت على تدريبها ازدادت مقدرتها ، ونمت قوتها ، وإذا أهملتها ترهّلت ، ولانت ولم تعد تستجب لإرادتك ، على أن الذاكرة تختلف عن العضلة فى أنها جزء من المخ ، ومن ثمّ فهى أقدر من العضلة على تحقيق ما يعجز البدن عن تحقيقه .

فلا تحسب أن قوة الذاكرة وقف على أشخاص دون سواهم ، أو هى «هبه» تُمنح لذوى العقول الجبارة ، وتُمنع عن ذوى العقليات المتوسطة ، كلا ، وإنما تستطيع أنت لو أحسنت تدريب ذاكرتك ، أن تدهش نفسك بما تحققه لك من معجزات .

يقول الدكتور : « صمويل جونسون» : « لكل إنسان حظ متساو من القدرة على تذكر الأشياء جميعها على السواء . ومثل الذى يحتج بمقدرته على تذكر شىء دون الآخر كمثل من يزعم أنه يستطيع أن يرفع بيده كرة من فضه ، ولا يستطيع أن يرفع كره مثلها من النحاس» .

ويقع مركز الذاكرة فى تجاويف المخ ، وبوساطة موصلات كيمائيه خاصة تتأثر أعصاب الحس المتصلة بهذا المركز فتستجيب للمؤثرات المختلفة . فإذا تكرر المؤثر وجد أعصاب الحس مهيأة لاستقباله . وثمة أنواع مختلفة من هذه المؤثرات التى تؤثر فى الذاكرة ، كالمؤثرات المرئية والسمعية والذوقية[1] والشمية[2] وغيرها من المؤثرات المرتبطة بأنواع أخرى من الحواس . وأهم هذه المؤثرات ، هى المؤثرات المرئية ، أى التى تسجل فى الذهن صورة واضحة ، أما المؤثرات بالسمع والتذوق والشم فأكثر الناس يستجيبون لها آليا ، على أن هذه الطريقة التى يستجيب بها المرء للشىء الذى رآه تتوقف على مدى نموه العقلى ، وهذا هو الذى يبين الفارق بين ذاكرة مدرّبه ، وذاكرة تُرِكت نهباً للفوضى .

إن الغرض من هذا المبحث هو مساعدتك على تنمية موهبة طبيعية يملكها

---

(١) المتصلة بحاسة التذوق .   (٢) المتصلة بحاسة الشم .

الجميع ، ولكن كثيرين يسمحون لها أن تبقى معطلة . وما ينبغى توضيحه أيضا هو أن الذاكرة ليست موقوفة على فئة قليلة من العباقرة ولكنها فقط مثل ذلك الحيوان الصعب المراس الذى ذكرته ، والذى لا يحب شيئاً أكثر من حبه للشرود .

كيف تقوّى ذاكرتك

إن أوفى أنواع الذاكرة ، هى التى تنشأ عن المرئيات ، بل إن هذا ليصدق حتى على الموسيقى التى تعتمد على السمع . فكل نغمة تتناهى إلى سمع الموسيقى الفنان إنما تحمل إلى ذهنه صورة محددة .

وإذن فلكى تقوى ذاكرتك ينبغى أن تزيد من مقدرتك على التقاط الصور تخيّل أن ذهنك أشبه بآلة التصوير . فعيناك تقومان مقام العدسه التى تلتقط الصورة ، وذهنك هو «الفيلم» المعدّ لاستقبال الصورة ، وأما ذاكرتك فهى الورق الحساس الذى تُطبع عليه الصورة حتى تجدها رهن إشارتك إذا طلبتها .

ووضوح الصورة يتوقف على كفاية الوقت الذى تتعرض فيه الصوره للورق الحساس أثناء طبعها ، فإذا لم يكن هذا الوقت كافيا أتت الصورة مشوشة غير واضحة المعالم ومن ثم نجد بعض الناس يعرفون مقدار الوقت اللازم لانطباع الصورة فى الذاكرة بوضوح ، ولكن أكثر الناس لا يعرفون . وإنما تتأتى لهم هذه المعرفة بالتجربة والتكرار .

كان «تشارلس وليم إليوت» الرئيس السابق لجامعة هارفارد الأمريكية يلقى حرجاً كبيراً لأنه ينسى أسماء معارفه ، وكان عليه أن يسدّ هذا النقص . فأخضع ذاكرته لتدريب مستمر أثمر آخر الأمر حتى اشتهر الرجل فيما بعد بأنه الرجل الذى لا ينسى وجها رآه مرة واحدة ، ولا إسم صاحبه .

فما الذى فعله «إليوت» لتحقيق هذه الغاية ؟ كل ما فعله أنه «تعوّد» أن يعطى «الصورة» المدة الكافية لانطباعها فى ذاكرته واضحة جلية ، كان إذا قابل شخصا لأول مرة ، دقق النظر فيه ، وملأ عينيه من ملامحه وهيئته ، وقرن هذه الصورة الإجمالية باسم الرجل .

وكان الروائى الشهير «روبرت لويس ستيفنسون» بدوره ، يعانى صعوبة جمة فى هجاء الكلمات ، وصمم على قهر هذا العجز ، فكان كل ما فعله أنه اعتاد «النظر» إلى الكلمات مدة أطول مما كان يفعل مع تكرار هجائها ، حتى أفلح أخيراً فى سد هذا النقص الذى كان يسبب له حرجا شديداً .

فإذا كان «إليوت» و «ستيفنسون» قد وجداً إلزاماً عليهما أن يمرنا ذاكرتهما ، حتى وصلا إلى ما وصلا إليه من الشهرة وذيوع الصيت ، أفليس الأحرى بالمتواضعين أمثالنا أن نسلّم بحاجتنا إلى تقوية الذاكرة ! .

وللدلاله على ما سبق القول من وجوب إعطاء الصورة زمنا كافيا للانطباع فى الذاكرة .. خذ كاتب الفندق مثلا .. إنك تجد كاتب الفندق يعرف نزلاء فندقه جميعا ولو عدُّوا بالمئات .. يعرفهم بسيماهم ، كما يعرفهم بأسمائهم .

فكيف يتأتى له ذلك ؟ .. حين يدلف النزيل الجديد من باب الفندق تلمحه عين الكاتب على الفور . وتظل تتابعه حتى يصل إلى مكتبه ، وهناك يرمقه الكاتب بنظره فاحصة مدققه سريعة فيعرف على الفور الغرفة التى تلائمه والسعر الذى يناسبه . وبعد محادثة قصيرة يقبل النزيل الغرفة المقترحة . وحين يستدير الكاتب ليسلم المفتاح للنزيل يرمق رقم الغرفة مرتين ، مرة على اللوحة المعدّة للمفاتيح ، ومرة أخرى على المفتاح نفسه ، ثم يطلب الكاتب إلى النزيل أن يوقع بإمضائه على سجل النزلاء ، فإذا تناول الكاتب السجل ، بعد هذا ، ليسجل رقم الغرفة والتاريخ ، وما إليهما يدقق النظر فى اسم النزيل وموطنه ويتلفت الكاتب بعد ذلك إلى خادم الفندق فيقول له : «غرفة رقم ٣٠٥ للسيد أسعد» فإذا استدار النزيل ليتبع خادم الفندق سأله الكاتب مرة أخرى ليرسخ الاسم فى ذهنه : «هل من خدمة تأمر بها فى الصباح ياسيد أسعد ؟» .. وهكذا .. لا يمض النزيل بالفندق بضع دقائق حتى يكون الكاتب قد عرف اسمه ، وموطنه ، ورقم غرفته معرفة تامة . إن خبرة هذا الكاتب علمته أن «يضبط الوقت اللازم لانطباع الصورة فى ذاكرته بوضوح وجلاء .

● درب ذاكرتك كل يوم لمدة ١٠ دقائق ، ولنفرض أنك تتعلم لغة أجنبية — وأنك تتعلم ثلاث كلمات فى اليوم — ففى عام سيكون لديك ٣٦٥ × ٣ = ١٠٩٥ كلمة ، علما بأن متوسط مفردات اللغة لدى شخص لا ينعم بكثير من التعليم لا تكاد تصل إلى ١٠٠٠ كلمة . بشرط أن يكون تدريبك جاداً ، وأن تضع فى أذنك سدادات وهمية إلا فيما يختص بعملك بالطبع عليك أن تحصل على أقصى تركيز .

□ ذاكرتك أثناء النوم :

إن العقل الباطن يستطيع أن يساعد الذاكرة مساعد جلية الشأن لأن العمل الذى يتم بدون وعى أثناء النوم غالباً ما يكون من نوعية ممتازة . وكثيراً ما حدث أن عالما كان يبذل جهداً شاقاً طول النهار بلا فائدة ، فيذهب إلى سريره وعقله

مشحون بكتله من المعلومات المصنفة ولا يكاد يستيقظ فى صبـاح اليوم التالى حتى يجد فى رأسه حلا واضحا لمشكلته ، وهكذا يكون نومك عميقا ومحرزاً للنشاط .

لذلك أقدم نصيحة هامه لك وهى : إذا كنت مقبلا على امتحان ؛ أو عليك أن تلقى محاضرة .. إلخ ، فلا تنس أن تعيد قراءة ما تريد أن تتذكره مرتين أو ثلاث مرات قبل أن تذهب إلى الفراش مباشرة أو أن تمكث بالفراش قبل أن يغلبك النعاس ، وتقرأ بصوت مرتفع ، وبطريقة معبرة ما تريد أن تتذكره .

ثمة طريقة أخرى ، نتائجها غالبا ما تكون محسوسة ، باستخدام جهاز التسجيل . عليك أن تسجل على شريط ، المادة التى تريد أن تتذكرها . ضع جهاز التسجيل بجوار سريرك ، وعندما تشعر بالنعاس وتكون نصف نائم ونصف مستيقظ ، أدر جهاز التسجيل .

وهذه الطريقة ليس بها سوى عيب واحد ، هو أنه قد يغلبك النوم وتترك الشريط دائراً ، لكن ليس من الصعب استعمال جهاز يتوقف تلقائياً بعد وقت محدد .

□ كيف تقرأ بطريقة أفضل .. وتتذكر بدون تعب ؟ :

عادة يكون من الضرورى أن تقرأ حتى تستطيع أن تتذكر . كثيرون يقرأون كلمة كلمة ، وآخرون يقرأون جملة فى مجموعات من الكلمات بدون اهتمام بالمعنى العام للجملة كلها ، وهنا لا تستوعب الذاكرة إلا قدراً تافها . هناك البعض يقرأون سريعا مستوعبين الجمل الكاملة أو أنصاف الجمل ، وهذا أسلوب صحيح ، بشرط أن يستطيعوا ؛ فى الوقت نفسه ؛ أن يستخرجوا الفكرة الأساسية للجمل ، فى الصفحة أو الفقرة التى يدرسونها ، أو أن القارىء يتخيل (أو يتصور) المنظر مشروحا .

أما الطريقه المثلى للقراءة الصحيحة .. فهى أن تقف بعينيك فقط على الكلمات التى **بالبنط** البارز فى النص التالى :

« **ترك** عمرو المنزل ، وجاء إلى **الحديقه** ، حيث كان محمد يزرع بعض **الخضروات** ، فسار ببطء نحوه ، وهو **يتأمل** جمال الحديقة وعظمة الأودية **المحيطة** بها » .

لماذا يجب أن تقرأ هكذا ؟ لأن الكلمات التى بالبنط البارز تمثل الأشياء الأساسيه المطلوب تذكرها . وعلينا أن نستوعب النقط البارزه فى النص ، أما الباقى

فهو «ملحق» بها فحسب . وإذا كنت تريد أن تتذكره ، فمن الواضح أن مخك سوف ينشىء بينها الروابط المنطقية .

☐ **أقرأ بسرعة أكبر :**

إن ما عليك أن تفعله هو أن «تستخلص القشدة» وذلك بأن تحفظ الأجزاء الأساسية مما تقرؤه حتى تتذكره لفترة طويلة .

إننى أحبذ التمرين الآتى بالذات ، إذا كنت تريد أن تقرأ بمزيد من السرعة . اختر مقاله تستهويك ، تصفحها بنظرة خاطفة ، لكن لا تقرأ (بسرعة أكثر فأكثر) سوى الجملة الأولى والأخيرة من كل فقرة . ثم حاول أن تستنبط المعنى المنطقى للمقالة . افعل هذا كل يوم ، مذكّر أنفسك بأنك لن تفعل هذا يوما ما ، لاحظ أن سرعة القراءة المثالية تتطلب من ٧٠٠ - ٩٠٠ كلمة فى الدقيقة بالنسبة لشخص له ذاكرة من الدرجة الأولى .

☐ **اجعل عيناك تنزلقان :**

يجب أن «تنزلق» عيناك على النص ولا تستقر إلا على الكلمة الدليلية التى تفسر ما بعدها ، عيناك ثابتتين بأقل قدر ممكن ، لا تقرأ مطلقا على نحو متقطع . إن هذا فى الواقع يرجع إلى العاده ، وفى المثال السابق فإن قراءة كلمة كلمة تتطلب ٣٤ وقفه ، على حين لم تتطلب القراءة السريعة سوى سبع وقفات وبدون تعب .

☐ **اختر أنسب وقت :**

من الأفضل لك أن تتجنب الدراسة بعد وجبة ضخمة ثقيله ، وبهذا التحفظ يبدو أن أفضل وقت لتدريب الذاكرة هو بين الثامنة والعاشرة مساء .

☐ **هل يجب أن تحشو مخك ؟ :**

إن حشو المخ لم يساعد أحداً . ولكنك قد تحتاج إليه عندما تريد أن تتذكر شيئاً لمدة قصيرة فقط ، كما يحدث فى ليلة الامتحان أو التى تسبق مناظرة عامة مثلا ، وعندئذ لايهم إذا نسيت بعد اسبوع .

مساعادات إضافة للذاكرة

● **أعد بناء حلقه بعد حلقه :** هذه حيلة مفيدة جداً . إذا فقدت شيئا تكون

متأكد أنك رأيته الليلة الماضية . مثال : إذا وضعت كتابا فى مكان ثم نسيت موضعه ، أو ضيعت نوتة مفكرة أو مستند ثمين . حاول أن تعيد تنظيم الوقائع حلقه بعد حلقه فى سلسلة الأحداث الواقعة التى يُعتبر الشىء الضائع حلقه أخيرة فيها سوف تجد عندئذ أنك تستعيد المناظر التى نسيتها وبنسبة ٩٠٪ ، إذا لم تكن قد تركت شيئا سوف تعثر على الشىء المفقود ، لأنك قد أعدت بناء سلسلة منطقيه تماما تتوافق مع الأحداث التى وقعت فعلا .

☐ **مشاجب (شماعات) الذاكرة :**

لاتوجد هنا قاعدة عامة . إن مشجب الذاكرة أداة تستطيع أن تعلّق عليها ما تريد أن تتذكره من الأشياء العادية فقط ، مثال ذلك الفرق بين كلمتى «ستالاجمايت»[1] و «ستالاكتايت»[1].. هل ستالاكتايت هى التى تتدلى من سقف الكهف أو أنها العكس ؟ .. من السهل حقا أن تتذكر أيهما هذه وأيهما تلك إذا ذكّرت نفسك بأن الكلمة التى فيها «ج» ترمز إلى «جبل» وهو الذى يعلو عن الأرض بشكل مخروطى مثل «ستالاجمايت» فى شكله ، وبالتالى تكون «ستالاكتايت» هى التى تتدلى من السقف .

الغذاء الجيد ضرورى لتقوية ذاكرتك

إن الذاكرة تتوقف فى عملها على الصحة ، الجسدية والعقلية ، فالذاكرة القوية تعتمد قبل كل شىء على المخ الجيد . وإذا أردنا أن ندير محرك السيارة يجب أن نمده بالوقود المناسب . فلماذا لا نتبع التطبيق العلمى نفسه مع المخ ؟ .

إن المخ يعمل بالدم[2]. ومقدار الدم الذى يمر خلاله فى ٢٤ ساعة يمثل ضعف الحجم الكلى لدمنا ٤٠٠ مرة ، ويستمر هذا ليلا ونهاراً ، طوال نصف المليون ساعة التى تمثل متوسط عمر الإنسان ومهام هذا المصنع الهائل الصامت أن يستقبل ويوجه ملايين لا تعد من الأحاسيس ، ويسيطر عليها فى الذاكرة التى «تختزنها» ثم تقدمها لك ثانية بعد عشرين أو ثلاثين سنة ! .

---

(١) ستالاجمايت Stalagmite : راسب كلسى متحجر يعلو أرض بعض الكهوف بأشكال مخروطية ، يسمى فى اللغة العربية «صواعد» .

(١) ستالاكتايت : Stalactite ، راسب كلسى متحجر يعلو من أرض بعض الكهوف بشكل الجليد المتحجر يسمى فى العربية «هوابط» .

(٢) يمر بالمخ ما يقارب من ٤٥٠ جالونا من الدم خلال ٢٤ ساعة .

إذن فلابد أن يكون الدم ، فى أنقى صوره ، المُشبّع جيداً بالأكسجين ، فى خدمة مخنا بصفة مستمرة .

إن عملية الأيض[٣] فى المخ يحكمها «الكالسيوم» و «الفوسفور» لهذا يجب أن يكون غذاؤنا محتويا على كمية ملائمة من هاتين المادتين فى حالتيهما الطبيعية ، وحتى يحدث التأثير المطلوب يجب أن نتناول قدراً قليلا من فيتامين «د» ، وهو موجود فى اللبن والجبن والبيض ، واللوز والجوز والبندق ، لكن احرص على هضم هذه المكسرات ، امضغها جيداً ، تناولها عند بادية الوجبة ، وتجنب أكل الكثير منها ليلا .

● **جرثومة القمح**[١]: هذا غذاء للمخل من الدرجة الأولى ، **فهو** غنى بالفسفور ، والكالسيوم ، والفيتامينات[٢]، والمغنسيوم (وهذا العنصر الأخير مفيد بصفه خاصة فى حالة الإرهاق بالعمل الشاق والتعب العصبى) .

● **السمك** : غذاء ممتاز للمخ .

كذلك تجنّب أن تأكل كثيراً من المواد الآتية :

● **اللحم الدهنى** : وعموما الأكلات الكثيرة الدسم .

● **السكر** : تناوله فقط بكميات متوسطة لأنه ينتج حامض اللبنيك الذى يؤدى إلى الإجهاد والتعب .

● **الفواكه الحمضية** : وأى شيء آخر يحتوى على حامض كثير جداً (جريب فروت ، المشروبات الحمضية ، الخل .. إلخ) .

□ تعلمّ كيف تأكل ؟ :

امضغ الطعام جيداً . أمضغه تماماً . لا تقرأ أبداً أثناء تناولك الطعام . إن مثل هذا التصرف مؤذى بالنسبة لمعدتك ولذاكرتك . من الأفضل أن تأكل فى صمت ، بلا كلام ؛ وعلى أى حال تجنّب المشادة والجدال مع من يظن أنه يجب أن ينعش وجبته ! .

ماهو العدد المثالى لمضغ كل لقمة ؟ امضغ اللقمة خمس مرات مركزّاً فكرك

---

(٣) الايض : Metabolism هو مجموع العمليات المتصلة ببناء الخلية الحية ، واحتراقها فى جسم الإنسان ، والتى يتم بها التمثيل الغذائى فى الجسم .

(١) جرثومة القمح أى جنين القمح .

(٢) تحتوى جرثومة القمح على فيتامين «ب» المركب وخاصة «ب ١٢» الذى يساعد المخ على العمل بصفاء وإشراق ، ويساعد الذاكرة على أن تصبح واضحة وباقية ، وهو موجود أيضاً فى الخميرة ، والمكسرات واللبن الزبادى .

على ما تفعل ثم زد بالتدريج عدد وطول مضغك المتعمدّ بحيث يكون مضغك عملية ممتعة وآليه ، إلى أن تصل إلى الرقم المثالى وهو حوالى عشرين مضغة لكل قمة ، من المعلوم أن الوجبة «الكافية» لا تعنى وجبه ثقيلة مطلقا !، وكل مرة تترك فيها المائدة ومعدتك غير مرتاحة تعنى أنك أكلت بطريقه غير حكيمة (مع ما تجلبه من القلق والوعكات الحتمية) .

ونحن فى غِنَى عن القول بأن المضغ ، والمناخ النفس عند الإفطار من الأمور الهامة .

لا تتردد مطلقا فى أن تستيقظ مبكراً بربع ساعة ، إذا كان هذا الوقت سيمكنك من أن تتفادى العجلة والاهتياج اللذين يقاسى منهما أُناس كثيرون فى بداية اليوم .

☐ ماذا يجب أن يحتوى أفطارك ؟ :

يمكنك أن تلتزم بالعناصر الأساسية التالية :

● **خبز (أسمر كامل)** : شريحتان أو ثلاث من الخبز والزبد ، وإذا كنت تحب المربى ، فخذ منها قليلا فقط .

● **حبوب مطحونه** : (قمح ، ذرة ، شوفان .. إلخ) : اصنع منها عصيدة وأضف إليها اللبن وقليلاً من السكر . وقد تفضل بيضة مقلية ، أو قليل من الجبن ، لتتمشى مع الخبز الأسمر والزبد .

● **تناول قليلا من الخميرة** : وهى مضاد قوى للتسمم (ملء ملعقتى شاى أو ثلاث ملاعق) .

● **وجبة الغداء** : إذا دبرت الأمر جيداً لإفطارك ، فإن الوجبات الأخرى تكون أقل اهتماما عما يُظن بها عموما . وهذا هو الأساس الذى نتبعه : .

● **مرتين أسبوعيا** : لحم أحمر ، لكنه دائما مشوى ، ويمكن أن تتناول سمكا (طازجا بالطبع و مسلوقا أو مطهواً على البخار) بدلا من اللحم فى أحد وجباتك .

● **البطاطس** : تناول منها أقل قدر ممكن . إن للبطاطس قيمة تقليدية فقط ، وقد أصبح فى الغالب عادة آلية لنا . تناول أرزك ،:أو مكرونة ، أو (بودنج مخفوق) ، فى أكثر الأحيان بدلا من البطاطس .

● **الخضروات** : ومن الأفضل طبخها .

● **الخميرة** : للغداء أيضا .. (ملء ملعقة شاى) . يمكن أن تتناول جرثومة القمح (ملء ملعقة شاى أيضاً) بدلا من الخميرة .

● **وجبة بعد الظهر** : إن تناول وجبة طعام بعد الظهر «شاى» يعتبر عادة لا هدف لها (وأحيانا تكون ضارة) إذا كانت الوجبات الأخرى مدبرة جيداً . مرّن نفسك تدريجيا على الاستغناء عنها لا تبذل جهداً عنيفا لقطع هذه العادة فجأة . حاول أن تحذفها كل رابع يوم ، ثم كل ثالث يوم ، ثم كل ثانى يوم ، ثم اسقطها من حساباك تماما .. وإذا وجدت أن المجهود أكثر مما يُحتمل .. فلا مانع من أن تستمر فى تناول وجبة «الشاى» .

● **عصير الفواكه** : (أو فاكهة طازجه وسهلة الهضم) ، أو فاكهة محفوظة (كومبوت) ، وإذا أردت أن تأكل قليلا من جرثومة القمح (ملء ملعقة شاى أو اثنتين) .. فلا بأس .

□ وجبة المساء أو العشاء :

لا تتناول قط وجبة فى المساء ، لأنها تجعلك تشعر بالثقل ، سوف تعانى ذاكرتك نتائج ذلك فى اليوم التالى . تجنّب تناول قدر آخر من اللحم والبطاطس ، إن مرتين فى يوم واحد كثير جداً فى الواقع . تناول بدلا منها .

● خبز أسمر .

● قليلا من الجبن (ومن حين لأخر – بيضة مقليّة) .

● فاكهة (مطبوخة أو نيئة) .

□ قليل من التنفس الصحيح :

هل تريد أن تغذى ذاكرتك .. ومن ثمّ تغذّى مخك ؟ إذن تنفّس بطريقة أفضل . حاول لمدة أسبوع أن تزود مخك بمدد جيد من الهواء ، وسوف تدهش للنتيجة ؛ لدرجة أنك لن تستطيع أن تستغنى عنه ، فهو أفضل قليلا مما تفعله الآن .

راقب نفسك وأنت تتنفس ، إنها عملية آلية ، لأنك تتنفس بدون أن تدرك ما تفعله . لكنه تنفس ضحل ... إنك لا تمنح رئتيك ربع ما تحتاجه . قف أو اجلس بمزيد من الاستقامة . إن تنفسك يتحسن فعلا .

تنفس بطريقة أعمق قليلا . سوف تشعر على الفور بالهدوء والاطمئنان مما سيبدو إعجازاً . تأكد أن ذاكرتك تعتمد على هذا التنفس وتقوى به .

□ يمكنك أن تمارس هذا النوع من التنفس بأن تفعل مايلى : :

● اجلس منتصب القامة – اخرج الهواء من صدرك عن طريق الأنف بقدر ما تستطيع .

● خذ شهيقا فى الحال بعد إخراج الزفير لمدة ثانية أو ثانيتين ، ولا تجهد نفسك بحيث يظل إيقاع التنفس عاديا تماما .

● دون توقف أخرج هواء الزفير ، لكن فى ضعف الوقت الذى استغرقته فى إدخاله إلى رئتيك . ابدأ فى سحب الشهيق مرة أخرى وهكذا .. قم بهذا التمرين بضع مرات فقط فى البداية ثم زده باطراد ، كرره كلما استطعت خلال اليوم ، حتى ولو كنت فى كل مرة تتنفس زفيراً واحداً وشهيقاً واحداً . وبالطبع يجب أن يكون هذا التدريب عن عمد . يجب أن تكون مدركاً ومتنبها لما تقوم به بقدر الإمكان . هل تقول إنك لا تستطيع أن تقوم به خلال ساعات العمل فى خمس أو ست مرات يوميا . وهنا أيضاً نجد أن الصعوبة الوحيدة هى فى تذكرك أن تقوم بهذا التمرين .

☐ **مزيد من النصائح :**

● فى أثناء تنفسك الشهيق ، اسحب الهواء إلى رئتيك برفق وبالتدريج لا تتعجل ولا تستمر بكل قوتك ، وليكن تنفسك منتظما غير منقطع .

● عندما تكون حابساً أنفاسك احتفظ بهدوئك ، لا تتوتر كما لو كنت تختنق ، ومن الأفضل أن تغلق عينيك ، وأن تركِّز تفكيرك فيما تفعل .

● **ساعد ذاكرتك** : إن الأفكار البشرية لها عادة سيئة ، فهى تنجرف مع التيار كيفما اتفق ، بيّن لها أنك رجل ، واخضعْها للنظام . كل شىء تصنِّفه فى حدود مخك ، سوف يشكل كره ثلجية تتضاعف بسرعة وتجتذب حتما كل شىء يمتّ إليها بصله . لكن ، كن حذراً . تأكد أن كل جزء يكون كلاً مترابطاً ، وأن هناك علاقة كاملة بين ما يأتى فى البداية وما يتبعه .

● **اجعل لموضوع دراستك معنى** : إن كل ما تتطلبه القوى العقلية هو أن تُستثار ، كما أن الصور التى تثير خيالك هى التى تبقى فى ذاكرتك مدى الحياة . لذلك عليك أن تبذل أقصى ماف وسعك لترى أن ما عليك أن تتذكره يعنى بالنسبة لك شيئاً هاماً بقدر ما يكون هذا المعنى حيويا أو مرحا يكون الاحتمال أكثر فى أن تنجح .

● **قاوم شرود ذهنك** : إن عقلك يميل إلى الشرود وهذا يضر بعملك يقول باسكال : «كثيراً ما تكون ذبابه كافية لتشتيت انتباه إنسان» فلا يمكن أن توجد ذاكره بدون انتباه مركز . إن أى شرود يشتت الانتباه ، ويكسر سلسلة التفكير ، والذاكرة تعتمد تماما على سلسلة من الأفكار المترابطة إذا كسرت منها حلقه فماذا يحدث للسلسله ؟! .

● **لاتستسلم لأحلام اليقظة** : إنك لن تتذكر ما لم تنتبه ولن تستطيع أن تنتبه عندما تكون نائما . إذن ما لم نمارس شيئاً من النظام والأنضباط على عقولنا ؛ فإننا فى الواقع نعتبر نائمين والممكن أن يكون الإنسان نائماً حتى أثناء ممارسة عمله . حتى فى أثناء تفكيره ! إلا أنه فى أغلب الأحيان يفكر فى شىء مختلف عما يجب أن يفكر فيه . أنك لن تستطيع أن تتذكر ما لم تدرّب . بإصرار قدراتك على الانتباه ، ولا تنسى أن الذاكره حيوان أخرق .

التركيز الذهنى

تركيز الذهن Concentration هو تعريض الذهن زمنا كافيا لمؤثر أو جملة مؤثرات كى تنطبع عليه انطباعا واضحا وحين يركّز الإنسان ذهنه إنما يغلقه دون كافة المؤثرات إلا هذا المؤثر المعين الذى يريده إن ينطبع عليه انطباعا واضحا .

والقدرة على التركيز الذهنى فى الوسع اكتسابها ، وتهيئة دعامه خلفية مناسبة هى الطريقة المثْلى لاسحراز التركيز الذهنى الذى لدى النظرة الأولى ، يتم الحصول عليه بالاسقاط ، إسقاط الصور الذهنيه التى لا تنسجم مع مجرى فكرنا ، وهذه الدعامة الخلفية ليست سوى مضاعفة الصور المتناسقه ، وإذا ضاعفت هذه الصور فلن يعرف تشتّت الذهن طريقه إليك .

خذ مثلا ، كاتب الفندق ، وما فعله لترسيخ صورة النزيل واسمه فى ذهنه . إن هذا الكاتب فى مستهل حياته العمليه قد وجد لزاما عليه أن يكتسب هذه القدره ، فتعلم على مر الأيام كيف يكتسبها ؟ .

ومن المسلمّ به أن تركيز الذهن يكون أيسر ، إذا كان المؤثر مما يصادف هوى فى نفس الشخص . مثال ذلك السيدة إذا مرت بها سيده أخرى تستقل عربة ، وسعها أن تلم بتفاصيل زيها ، وهندامها من قمة رأسها إلى أخمص قدمها ! فهذه الثوان القلائل تكفى السيدة لتركيز ذهنها فى هندام السيدة الأخرى ، لأن هذا المؤثر (أى الهندام) مما يصادف هوى فى نفس النساء عموما .

وأفضل تعريف للتركيز هو القول بأنه انتباه طويل ، أو مدعم وهو يعنى إعمال الذهن حول موضوع أو مشكله لفترة طويلة نسبيا ؛ أو – على الأقل – العودة باستمرار إلى مشكلة ما كلما انتحت عنها أفكار الشخص مؤقتا :

وثمة طريقه موفقة أخرى للتركيز الذهنى ، أو بعبارة أخرى ، تهيئة انتباه المرء ، هى أن يمسك بيده قلما ويستعد لتدوين ما يمليه عقله : ففى هذه الحركة بالذات

سألتها عن طرائقها فى العمل : « أتناول صفحة بيضاء غير مسطورة ، وقلما ، وأجلس إلى منضدة خالية عارية من كل شىء ، وسرعان ما ترد قصة على خاطرى فأكتبها » ؛ وكذلك كان الحال مع «انطون تشيكوف» الذى كتب للمجلات قصصا لم تكن من الصنف الذى تؤثره المجلات كما كانت قصص هذه السيدة ، ولكن عملية الورقه والقلم هذه ، لا يتحقق نفعها إلا إذا كنا ننشد ، بنوع خاص ، الوضوح واليقين ، كى نعقد العزم فيما يتعلق باتجاه ما . ومن الأفضل للمرء أن يكون فى رأيه بتاراً كالسيف من أن يكون متردداً كريشة فى مهب الريح .

وعلى العموم فإن التركيز الذهنى حالة طبيعية يمكن تهيئتها فى يسر بوسائل بسيطه ، ويتوهم أنها غير مألوفه لسبب واحد وهو أنهم لا يحاولون ، وفى هذا الشأن ، كما هو الحال فى شئون أخرى كثيرة ، يموت الجائع والخيرات مكدسة على قاب قوسين أو أدنى منه فإذا كنت ممن يلاقون صعوبة فى تركيز أذهانهم ، فإن الفرصة مهيأة أمامك لتنمية قدراتك على الانتباه والتركيز بسهولة ويسر كما سيأتى .

□ قدراتك على الانتباه والتركيز يمكن تنميتها :

تستطيع مساعدة قدراتك على الانتباه والتركيز ، وتستطيع أيضا أن تنميها بالتمرينات التى تبدو طفوليه للوهلة الأولى لكن إذا اعتدتها ، فإنها تبرهن على فعاليتها بطريقه مذهلة .. مجرد بضع دقائق فقط فى اليوم . كل ما عليك أن تفعله ببساطة تامه ، أن تتعلم «الانتباه» .

● كل يوم لمدة خمس دقائق ، اختر أى موضوع تحبه (عمل ، فن ، مغامرة ، إلخ) . ارغم نفسك على التفكير فى ذلك الموضوع فقط حتى ولو لم تكن قد فكرت فيه من قبل . والمهم هو أن تطرد من عقلك – بلا رحمة – الأفكار الدخيلة التى تحتشد بداخله لن يكون هذا سهلا فى البداية . إنها تشبه محاولة دفع قطيع من الأغنام أمامك على طول الطريق ، وهى أكثر اهتماما بالعُشب النامى على حافة الطريق .

● قف كل يوم أمام واجهة (فترينة) أحد المتاجر ، انظر إلى الأشياء فى الفترينة – واحدة بعد الأخرى – وعندما تعود إلى البيت ، خذ قطعة من الورق ارسم (الفترينة) . وحدد عليها أسماء الأشياء التى تتذكرها . وفى اليوم التالى ، اذهب إلى ذلك المتجر ، وراجع محتويات (الفترينة) . وأكمل قائمتك بهذه الطريقه سوف تنمى ذاكرتك «التصويريه» . وفى فترة قصيرة ، لن تضطر إلا أن تلقى لمحة على أى

شخص حتى تتمكن من وصفه بالتفصيل .

● تذكر أن الانتباه والتركيز ليسا «منحة أو موهبة» بالنسبة لأى شخص ويجب أن يُكتسبا بالتدريب . وإذا كان أناس كثيرون ضعاف الذاكرةفإن السبب ببساطه هو أنهم لم يصادفوا أحداً يخبرهم كيف يفعلون هذا ؟ .

● تمرن مع أصدقائك أو عائلتك . انظر إلى شيء ما لبضع ثوان أو دقائق .. ثم أدر وجهك عنه . ودع شخصا يوجه إليك بعض الأسئلة : مالونه ؟ ما شكله ؟ ما حجمه ؟ .. إلخ

● أبق مع أصدقائك . أحضر عشر قطع من الورق بألوان مختلفه وضعها فى صف واحد . انظر إليها لمدة ثلاثين ثانية . ثم صِف ترتيب الألوان .

غيّر الترتيب . ثم ابدأ من جديد .

● بضع دقائق للحساب العقلى ، ابدأ من مائة ، وعد إلى الوراء : ١٠٠ ، ٩٩ ، ٩٨ ، .. إلخ وفى اليوم التالى عِد عداً تنازلياً كل ثانى رقم ١٠٠ ، ٩٨ ، ٩٦ ، .. إلخ ، وفى التالى عد تنازلياً كل ثالث رقم ١٠٠ ، ٩٧ ، ٩٤ ... إلخ ، ثم كل رابع رقم ، وخامس رقم .. وهكذا قم بهذا التمرين كل يوم . اخترع تمرينات من هذا النوع . مارس تدريبك بوجه خاص عندما يكون انتباهك مشغولاً غير مفيد (فى الأتوبيس مثلا ، فى حشد من الناس ، حيث يكون الجميع يتحدثون .. إلخ) .

● ومادمنا بصدد التمرينات المسلّية ، فإليك لعبة طريفة تستطيع أن تزاولها مع أصدقائك وضيوفك ، وتفيد منها فى الوقت نفسه مقدرة على التركيز الذهنى ..

أعط لكل من الحاضرين – وكلما زاد عددهم كان أفضل – ورقة وقلما ، اطلب إلى كل منهم أن يكتب على الورقة الأرقام من ١ إلى ١٠ ثم أسأل كلا منهم ، على التوالى . أن يذكر كلمة تخطر بباله ، إلى أن تكتمل عشر كلمات ، يدونها الجميع أمام الأرقام التى سبق أن دونوها .

ولنفرض أن القائمة أسفرت عن الكلمات التالية :

١ – فاكهة . ٢ – طائر . ٣ ع مؤلف . ٤ – قائد . ٥ – موسيقار .
٦ – سياسى . ٧ – نهر . ٨ – مدينة . ٩ – ممثلة . ١٠ – مثل شائع .

أعمد بعد ذلك إلى كتابة الحروف الهجائية كل حرف على قصاصة ورق ، واخلط القصاصات ، وادع واحداً من الحاضرين ليلتقط إحدى هذه القصاصات ، ولنفرض أن الحرف المكتوب فى القصاصة هو حرف الباء (ب) مثلا .

اطلب عندئذ من الحاضرين أن يكتب كل منهم أمام الكلمات السالفة الذكر أسماء تتفرع على هذه الكلمات وتبدأ كلها بحرف (ب) ، وحدد الوقت بخمس دقائق ، والفائز هو الذى يستطيع أن يجد إسما مناسبا لكل كلمة ، كمايلى (مثلا) .

١ – فاكهة : برقوق . ٢ – طائر : بلبل . ٣ – مؤلف : برناردشو . ٤ – قائد : بونابرت (نابليون) . ٥ – موسيقار : بيتهوفن . ٦ – سياسى : بسمارك .

٧ – نهر : براهما بوترا (الهند) . ٨ – مدينة : برمنجهام . ٩ – ممثله : بربارا ستانويك . ١٠ – مثل : «باب النجار مخلّع» .

ولكى تضفى شيئا من البهجة على هذه اللعبة . اعط لكل إجابة صحيحة ١٠ درجات ، فتكون النهاية القصوى هى ١٠٠ درجة ، فإذا اشترك اثنان فى الإجابة نفسها فقسمٌ الدرجة القصوى بينهما لينال كل منهما ٥٠ درجة فقط ، وذلك لكى تحفز المشتركين إلى تركيز أذهانهم لاختيار أسماء متنوعة .

إن هذه اللعبة تتطلب تركيزاً «حقا» وهى تمرين مثالى فى تقوية الذاكرة جرّبها .

ومن خلال هذا الانتباه المركّز استطاع «توماس كارليل» حين احترقت أصول كتابه «الثورة الفرنسية» نتيجة إهمال خادم صديقه «جون ستوارت مل» أن يعيد كتابتها غيبا كلمة كلمة ! .

ولعل الكلمات المفردة الأسماء أصعب من غيرها فى الحفظ ولكن فى وسعك أن تتغلب على هذه الصعوبة إذا اتبعت قاعدة «الصور» معها أيضا .

فإذا وقعت خلال قراءتك على كلمة جديدة عليك . فانظر معناها فى القاموس . وانفق لحظة فى تدقيق النظر إليها لكى ينطبع «شكلها» فى مخيلتك واضحاً ، ويرتبط فى ذهنك معناها ..

وكذلك الأسماء . اتبع معها القاعدة التى يتبعها كاتب الفندق ، اقرنها فى ذهنك بشكل أصحابها وهيئتهم ، ومميزاتهم . وإذا كان الإسم جديداً عليك فدوّنه فى ورقه أمامك وتأمله حتى ينطبع فى ذهنك .

وإذا كان نطقه . هو الجديد عليك فكرر نطقه عدة مرات وأنت تتأمله ، حتى يقترن المؤثر السمعى بالمؤثر المرئى ويتركا أثرهما واضحاً فى مخيلتك .

ومن القادة الذين أوتو المقدرة على حفظ عدد هائل من أسماء جنودهم نذكر «جورج واشنطن» و «نابليون بونابرت» . ولاشك أن ولاء الجنود لهؤلاء القواد كان

أكثره يعزى لهذه القدرة التى مكنتهم أن ينادوا جنودهم بأسمائهم .

وتتجلى فائدة طبع «الصور» على الذاكرة ، فى حفظ الخطب ، والمقطوعات الطويلة . فالخطباء يجدون أن أفضل طريقه لحفظ خطبهم هى أن يكتبوا هذه الخطب أولا ، ويملأوا أنظارهم منها ، هذا إذا لم يكن فى وسع الخطيب أن يحفظ خطبته كلها فى ذاكرته .

وطلبة المدارس والجامعات يجدون كذلك ، أن أفضل طريقه لحفظ مضمون درس ما ، أن يكتبوا هذا المضمون ويكرروا النظر إليه بين حين وآخر . فبهذه الطريقة يكوِّنون فكره «عينية» بأقية عن الموضوع الذى أعياهم حفظه ! .

لقد قيل مراراً إن كثيراً من مخترعات العالم العظمى قد حدثت بالمصادفة .. وهذا صحيح فى حدود هذا المعنى ، ولكن المصادفة كانت مؤيدة بتفكير جاد ، ولم يكن لها أن تحدث لولا وجود هذا التفكير . لقد قيل إن فكرة الجاذبية طرأت على «نيوتن» عندما سقطت التفاحة على رأسه .. ربما كان هذا صحيحا . ولكن التفاح يسقط من قديم الزمان باستمرار منذ أن كانت هناك أشجار تفاح ، وكان لا يزال احتمال سقوطه على رؤوس الناس ممكنا منذ أن اكتسب الناس عادة السير تحت الأشجار .

وبرغم أن فكرة الآلة البخارية قد طرأت على ذهن «وات» بينما كان يلاحظ غلاية الشاى ، فإننا نسأل كم من الآف قبله شاهدوا البخار وهو يتصاعد من الغلايات ؟! .. ويقال إن فكرة البندول لتنظيم الوقت ، قد طرأت لجاليليو وهو يلاحظ الفانوس المتأرجح فى سقف الكاتدرائيه ..

والواقع أن كثيرين آخرين قد شاهوا الفانوس وهو يتأرجح ، ولكن لم يفطن منهم أحد مثل الذى فطن إليه جاليليو .. ومن المرجّح فى كل هذه الحالات أن الاختراع ، أو الفكرة ، كان قد تبلور فى ذهن المخترع خلال فترات تركيز سابقة ، ولم يبق عليه إلا أن يصوغه .. فكل ما كان مطلوبا منه هو حدوث واقعة بسيطة غير عادية لجعل الفكرة كاملة وحيّة ، والواقعة غير العادية هى التى تحدث بالمصادفة ، والتى لقيت من تستحقه حتى يبزغ الاختراع أو الفكره ، ولم يكن للمصادفه من فضل إلا جعل الاختراع أو الفكرة يأتيان بسرعة . ولكن التفكير الذى قام به هؤلاء الرجال هو الذى أفضى بالتأكيد إلى الاختراع أو الفكرة لهذا قيل : «إن الصدفه لا تأتى إلا لمن يستحقها» .

وأنا لا أتوقع بالطبع أن يركّز كل شخص ذهنه بجذّبه فى كل مناسبة .. أنا نفسى لا أفعل ذلك .. وإنما رغبت فقط فى التأكيد أنه أفضل . وكل إنسان ؛ حتى الشخص المجهد الذى يضطلع بمختلف الأعمال الإدارية ؛ يجب أن يخصص ساعة ونصف على الأقل كل يوم ، أو ثلاث ساعات ونصف ساعة كل أسبوع ، للتفكير المركّز .. وأنا أدرك مدى الصعوبة البالغة التى يلقاها بعض الناس فى تكريس ساعة واحدة من ثمان وأربعين ساعة من وقتهم فى التفكير الذى يبدو كشىء ضائع ، ولكن إذا أقدمو على التضحية لبسبعة أيام متتالية ، فإنهم سيجدون أنفسهم فى تقدم مستمر نحو إحراز الهدف ، ويُحتمل أيضا أن يتشجعوا فيطيلوا فترة التركيز الذهنى كل يوم .

إن العناية الإلاهية قد أودعتك آلة لا نظير لها ، فى وسعها أن تحقق لك المعجزات ، فاستخدم «آلة التصوير الذهنية» التى حبتك بها الطبيعة إلى أقصى ما تستطيع ، فليس ثمة حدود معروفة لإمكانياتها . وتعلمّ بالخبرة والتجربة الزمن اللازم للصور التى تطالعها لكى تنطبع على ذاكرتك واضحة جليّة . واعمد إلى تركيز ذهنك بمقدار هذا الزمن اللازم ، فكما قال فرنسيس بيكون : «ليست المعرفّة إلا ذكرى» .

« .. تـذكَّر .. »

« أن الحقيقه بزغب من الخطأ بسرعة أكبر من بزوغها من الخلط . والواقع أن هناك حقيقة مهدشة فى هذا القول ، أنك إذَا لم تستطع أن تكون على صواب فى هذه الدنيا ، فأفضل شيء لك أن يكون خطوك واضحاً ومحدداً لأنك بذلك تستطيع أن تصل إلى بر الأمان .. ولكن إذا أنت تأرجحت بين الصواب والخطأ ، متذبذباً ومتقلبا ، فأنت تظل هائماً على وجهك أبداً . أما إذا كنت مخطئاً تماما ومن كل وجه وبإصرار ، فلابد أنك يوما سوف تصادف الحظ فى أوجه وهو يقرع باب رأسك ومعه حقيقة ما ، تصل بك إلى الخط الصحيح مرة أخرى »[1].

[فرنسيس بيكون]

كيف تستذكر دروسك وتتفوق

فى نهاية العام الدراسى يتقدم الطلبة للإمتحان ، بعضهم ينجح ، والبعض يرسب ، إما لأنهم لا يعدّون أنفسهم للاحتفاظ بالمواد التى يدرسونها فى

(1) Science and Education .

ذاكرتهم ، أو لأن ذاكرتهم تتخلى عنهم عندما يواجهون ممتحنيهم .

ولعل جوهر الشكوى التى يجأر بها الشاكون من ضعف ذاكرتهم منصب على عجزهم عن استذكار حتى فقرة صغيرة مؤلفة من بضعة سطور ! ومرد هذا العجز ، فى أغلب الأحيان ، إلى خطأ الطريقة التى يتبعها هؤلاء الطلبة فى الاستذكار .

للنجاح فلسفة

النجاح فى العمل فن يتطلب الحذق والمهارة ... ومهما كان العمل ، مهما كان نوعه فهو فى حاجه إلى تدبير وإعداد مسبقين . .

وكذلك يجب أن تبدأ بإرادة قوية وتصميم ، بإرادة تستهدف النجاح فى الدراسة .

هذه الإرادة التى ينبغى أن تغرسها فى نفسك هى بلا ريب عنصر الثقه بالنفس ، وهو الأمر الذى يرتهن به النجاح إلى مدى بعيد . وهذا ما يؤكده علماء النفس .

والتنظيم أساس أيضا من الأسس التى يشيد عليها صرح النجاح ، فعليك والحالة هذه أن تنظم نفسك ، ثم أن تهىء فى هذه النفس التواقه ، الأمور التالية التى تعتبر من القواعد الهامه التى تقرر مصير العمل .

أولا : التفاؤل فى الفكر والشعور .. أى الاستبشار بالنجاح هو الذى يجعلك تنطلق وراء الهدف ولا تتردد ، ولا تُحجم .

ثانيا : يجب أن تروض المخيلة على تصوّر ما يعود بالنفع والفائدة .. انبذ تلك الصورة القاتمة الخاسرة التى توحى بالهزيمة .. إن رضت مخيلتك على هذه الصور الزاهيه بأن نجاحك مضمون ، وأن تفوقك فى الدراسة أمرٌ مسلمّ به ؛ فسوف تتيح لك التمسك برغبتك فى النجاح ، وتزيد من وضوح هذه الرغبة وتبلورها فى ذهنك .

ثالثا : هذّب عقلك تهذيباً إيجابيا منظما . وجه طاقتك إلى غاية واحده لا إلى عدة غايات وأهداف . واعلم أن الجهد الذى يتسم بطابع الفوضى ينقلب إلى جهد مضيّع مهدور ، وكل إرادة يُساء استعمالها ولا يكون لها منهاج معلوم لا تعتبر إرادة غلاّبة .. فالإرادة الحق هى التى تُستعمل بأسلوب واع حكيم لتكون منجزاتها أفضل الإنجازات .

والإيمان بالله والتوكل عليه .. فى كل حين هو الأساس القويم للنجاح ، الإيمان بالله حقا إن ذقنا حلاوته .. يَعمرْ قلوبنا ويفيء علينا بظلاله ، ويرشدنا إلى الطريق السوّى ويكون حافزاً قويا للنجاح والتفوق .

أفكار فى القمة .. على طريق النجاح والتفوق

جهّز عملك : أعرف طالبا نابها ، كان ينفق خمس دقائق ليلا ، فى تجميع كل الأشياء التى سيحتاجها لدراساته فى صباح اليوم التالى . كل شىء جاهز على مكتبه . القلم الرصاص ، والحبر جاهزه . كان يضع علامات على صفحات كتابه التى يريد أن يستذكرها . كتب المراجع الأخرى مفتوحه وجاهزه على الصفحة التى عليه أن يقرأها . وفى الصباح التالى يجلس ليؤدى عمله . متأكد أنه سيتمكن من التركيز بدون اضطرار إلى أن يرفع رأسه مرة واحدة ، وكان يتفوق دائماً .

فاجعل قاعدتك أنك بمجرد أن تجلس إلى مكتبك فإن القنبلة لا تستطيع أن تجعلك تلفت نظرك حتى لو كان قلمك غير مبرى جيداً .

☐ تحكّم فى تركيزك :

درِّب نفسك على خلق الحالات الجسدية المناسبة لتركيز الانتباه ، تعلّم أن تكون ثابتا ومسترخيا أثناء المذاكرة . لاتكن متوتراً ، بل احتفظ بثباتك . عيناك ملتصقتان بالنص الذى تقرؤه ؛ الذى يجب أن تلمّ بكل تفاصيله . لاحظ تنفسك أيضاً . تعلمّ أن تتنفس عن قصد أثناء استذكارك ؛ فهناك علاقة حيوية جداً بين التنفس والانتباه . تنفس ببطء مستخدماً رئتيك إلى أقصى طاقتهما . لاحظ أن يكون التنفس بسهولة وبلا إرغام قسراً . إن ذلك سوف يزيد من طول الفترات البينية التى فى أثنائها تكون أكثر قدرة على الانتباه الشديد .

● **التكرار** : أثبت علماء النفس أن خير طريقة لاستذكار شىء – سواء كان مجموعة من الأرقام أو قصيدة شعرية ، أو قطعة نثرية – هى أن تكرره ، جملة مرات من بدايته إلى نهايته .

ولقد يعمد بعض الطلبه إلى تقسيم الشىء المراد استكذاره إلى فقرات ، يستذكرون كل فقرة منها على حده ، ثم ينتقلون إلى التى تليها . وهذه طريقه عقيمة ، ونتيجتها الطبيعية أن ترسخ فى الذهن فقرة أو اثنتان أكثر مما ترسخ سائر الفقرات !

وإنما الطريقة الصحيحة أن يكرر الطالب الشيء المستذكر كله من بدايته إلى نهايته جملة مرات .

● **انتبه إلى معنى الكلمات** ، لا تدرس اسما بدون أن تضع له رسما ، أو حاول أن تعطيها معنى كما هو موضح من قبل ؛ وبشيء من التدريب سوف تسرع فى التقاط مفتاح الكلمات فتصل بين ما جاء قبلا بما يتبعه .

● **دع قليلا من الوقت يمرّ** : والأفضل أن تتيح للاستذكار فترة مناسبة ، لا تكرر مرة بعد مرة ، لن تجنى غير التوتر ، ولن تفيد شيئا . أفضل أن تقسِّم مرات التكرار . إن فترة راحة تساوى ثلاثة أضعاف الإعادات الآلية المحشورة فى العقل قَسْراً .

● **التسميع بصوت مرتفع** : أساس التكرار هو التسميع (ماذا نفعل غير هذا فى المدارس ؟) .

فإذا كان الاستذكار بدافع إلقاء الشيء المستذكر شفاهة ، أو كتابته تحريراً – وهذا هو الدافع الرئيسى للاستذكار غالبا – فينبغى أن يكون تكرار الشيء المستذكر – أثناء الاستذكار بصوت مسموع – وحبذا لو كان الاستذكار فى غرفه هادئة ليس بها سوى الطالب ، حتى يتركز ذهنه فى الشيء المراد استذكاره فقط .

فإذا كررت الشيء المراد استذكاره عدداً كافيا من المرات ، فحاول أن تعيده غيباً . فإذا وقفت عند كلمة معينة أو سطر معين ، فلا تعد إلى البداية مرة أخرى ، محاولا تذكرّ الكلمة التى غابت عنك ، وإنما انظرها فى الأصل المكتوب ثم أكمل التلاوه إلى النهاية غيبا ، أو بمعنى آخر اجعل دأبك أن تبدأ من البداية ، وتصل إلى النهاية فى كل مرة حتى برغم ما يعترضك من عثرات .

قال الشاعر:

بقدر الكد تكتسب المعالى ومن طلب العُلاَ سهر الليالى

وليس إلا الخارق للذهن هو الذى يسعه أن يعيد تلاوة شيء غيبا بعد قراءته مرة أو مرتين . أما المتوسط الذهن فيسعه أن يقوم بهذه المحاولة بعد تكرار الشيء المستذكر اثنى عشرة مرة .

وتوخّ ، وأنت تستذكر أن تعرف معنى كل كلمة تقرأها ، وأن تنطقها النطق الصحيح . وأن تفهم المعنى الإجمالى للمقطوعة التى تستذكرها . هذا إلى جانب تلاوة المقطوعة بصوت مسموع ونبرات واضحة .

قال الشاعر :

احترم العلم خدمة المستفيد وأدم درسه بعقل حميد
وإذا ما حفظت شيئاً أعده ثم أكده غاية التأكيد
ثم علقه كي تعود إليه وإلى درسه على التأبيد
وإذا ما أمنت منه فواتا فانتدب بعده لشيء جديد
مع تكرار ما تقدم فيه اعتناء بشأن هذا المزيد
إن كتمت العلوم أنسيت حتى لا تُرَى غير جاهل وبليد

● والصبر الجميل من شيم طالب العلم النابه . قال ابن هشام :

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يطلب الحسناء يصبر على البذل !

ولا تحاول أن تستمر فى الاستذكار ، إذا بلغت مبلغ التعب ، وتوتر الأعصاب ، فإنك حينئذ تضر ذاكرتك أكثر مما تفيدها . وإنما أرجىء الاستذكار إلى حين آخر ومن ثم فمن الأفضل ألا ترجىء شيئاً بطلب الاستذكار إلى آخر وقت ثم تشرع فى استذكاره ، بل اتح له مهلة كافية ..

قال الشافعى :

أخى لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تأويلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وإلقاء أستاذ وطول زمان

ومهما يكن من أمر ، فإذا قصدت إلى تقوية ذاكرتك ، أى تنمية مقدرتك على استعادة التجارب الماضية . فينبغى أولا أن تتخلى عن كل اعتقاد فى ضعف ذاكرتك ، لا تحتج قط بقولك : « ما الفائدة وأنا على هذا القدر من ضعف الذاكرة » ! .

فلعل هذا العذر الذى تداوم على انتحاله هو السبب الذى حال دونك واستخدام ذاكرتك على الوجه الأكمل . واعلم أن خير طريقه لتذكر شىء هو أن تحاول «تذكره» .

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

لا تفقد حماسك للمطالعة والاستذكار مهما لاقيت من عقبات .

وكم لله من لطف خفى يدق خفاه عن فهم الذكى
وكم يسر أتى من بعد عُسْر ففرج كُرْبة القلب الشجىّ
وكم أمر تساء به صباحا وتأتيك المسرّة فى العشىّ

٩

إذا ضاقت بله الأحوال يوما   فثق بالواحد الفرد العلى

قال ﷺ : « **الحكمة ضالة المؤمن ، أينما وجدها أخذها** » وقيل لابن عباس : بم أدركت العلم . فقال : « **بلسان سئول وقلب عقول** » وقيل : « **إنما يذهب العلم النسيان وترك المذاكره** » .

قال ﷺ : « **آفة العلم النسيان وإضاعته أن يحدث به غير أهله** » .

والتواضع صفة العلماء ، فكن متواضعاً .

قال الإمام الشافعى :

كلما أدبنى الدهر   أرانى نقص عقلى
وإذا ما أزددت علما   زادنى علما بجهلى

ويقول أيضاً : كنت أقلّب الورق بين يدى مالك تقليبا رقيقا هيبة أن يسمع وَقْعه .

قال الشاعر :

إن المعلمّ والطبيب كلاهما   لا ينصحان إذا هما لم يُكرما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه   واقنع بجهلك إن جفوت معلّما

إن الذاكرة القوية شيء لاغناء عنه لكل من يسعى إلى النجاح فى الحياة ، وفى وسعك أن تكتسب هذه الذاكرة القوية إن أنت حاولت اكتسابها .

قال الشاعر :

كن للأوامر والنواهى حافظا   وعلى الصلاة مواظبا ومحافظاً
واسأل إلهك حفظ حفظك راغبا   فى فضله فالله خير حافظا

ومسك الختام أن نضرع إلى الله بدعاء النبى ﷺ الذى فيه يقول : « **اللهم إنى أسألك علما نافعا ، ورزقا طيبا ، وعملا متقبلا** » .

□ ثم ماذا عن الأدوية التى تؤخذ قبل الامتحان ؟! :

توجد بعض المواد التى تساعد الفرد على الحفظ والتذكر . وهذه المواد يجب ألا يُساء استعمالها مطلقا ، لكنها تساعد غالبا بدرجة عظيمة على إيقاف مؤثرات آلية معينة تعوق الذاكرة مثل الهياج ، والعصبية .. إلخ . وأشهر هذه المواد مايأتى :

● **فيتامين ب$_{١٢}$** : فى شكل سائل ، وهو يُسمى أحيانا «فيتامين الذكاء» .

● **حامض الجلوتامين** : وهو يُستعمل لتحسين معدل الذكاء[1] فى حالات معينة من القصور العقلى .

● **المنبهات** : وهى تؤخذ للحصول على مزيد من الوقت للدراسة بدون تعب . إن هذه المواد سامة دائما . لأنها تعمل ضد المبادىء الأساسية للصحة ، لهذا يجب الامتناع عن تعاطيها .

● **المهدئات** : يجب ألا تُستعمل فى أى وقت قريب من الامتحان لأنها تتعارض بخطورة مع العمل الصحيح للمخ ..

● **المهدئات القوية** : (مثل لارجاكتيل ، ريزربين .. إلخ) تشبه المستحضرات القوية المضادة للألم (مثل : توفرانيل .. إلخ) يجب ألا تؤخذ إلا بأمر الطبيب ، أو المعالج النفسى .

● **أدوية التوازن النفسى** : وهى مهدئات غرضها الأساسى هو جلب طمأنينة العقل (طمأنينة زائفة) ، ومن أمثلته النموذجيه عقار (الليبريوم) ، وهذا النوع من الأدوية يُستعمل للتخلص من الأفكار السوداء (وليس للكآبة العصبية الخطيرة) ، أو لمعالجة الأمراض الجسدية الناشئة عن اضطرابات نفسية أو عقلية ، والمقرونة بأعراض وهمية .

● **المهدئات التقليدية** : التى تكبح كل المؤثرات الجسدية للقلق ، والأرق ، وعُسْر الهضم .. إلخ ، ويوجد منها نوعان أساسيان على الأقل : « هايدروكسيزين » وهو مهدىء ومشتقاته (التى لا تضر فعلا) ، و « ميبروبامات » ومن الواضح أنه أكثر تسميما .

التسامى الخُلقى شرط من شروط التفكير الرفيع

يقول فوفنارج : « تصعد الأفكار العظيمة من القلب » ويقول جوبير : « إن القلوب التى يعوزها الدفء يعوزها النور » .

والمحبة سواء أكانت هى جاذبية الحق ، أم الحب الأصيل النقى ، تفتق الذهن وتضفى عليه حرية النبوغ ؛ وتعمل الأمومة أيضا على هذا النمط ، وتبدى الحيوانات هذا بطريقة باهرة حقا ، وأيضا – لنقل دون أية محاولة فى الإغراب

---

(١) معدل الذكاء : Intellinence quotient : وهو عبارة عن حاصل قسمة سن الطالب العقلية على سنه الزمنية ، مضروباً فى مائه . وهذا الاختبار يبين نسبة ذكاء المرء إلى سنّة .

اللفظى – حتى النسوة المتصنعات يدين هذا ؛ ويستمر التغيير ما دام تيار المحبة يظل متدفقا قويا .

وهكذا يفعل كل حافز عظيم يتسم بالإيثار ويملأ الروح بأكملها ، وليس ثمة مكان يتيح فرصة لمثل هذا الحب فى المجتمع حيث يبدو الحافز البدائى ، نحو حالة تعاونية إتحادية أفضل ، فى عنفوانه بعيداً عن أن يستنفد نفسه . ولاشك فى أن أى امرىء قام ، ولو مرة واحدة ى حياته ، بمهمة جمع[1] المال لعمل خيرى ، علم ، على عكس الاعتقاد العالم ، أن كثيرين من الأثرياء يستطيعون أن يرفضوا دفع جنيهاً واحداً ، ولكن بجانب هذا فما من مكان تجد فيه فكرة تستحق التعضيد ، ما تجده هنا منن تعضيد ، والسماحة الفكرية – التى يجىء الإحسان كنتيجة فطرية لها – غريزة عند العربى ، ولذلك فليس عجيباً أن يجد فرصاً كثيرة للنمو عن طريق الحب النقى ، وأن يكون التفكير المتولف بين القوموهو مثلها الأعلى على حد تسمية الناس له ، ذا خاصية عجيبة غير مألوفة فى الكثير من بلدان العالم .

ولكن إذا فرضنا أن هذه الفرص فاتت الرغبة الأمينة ؛ وإذا فرضنا أن جميع الرجال سعداء ، وأنه لا يوجد بشوارع مدينة القاهرة الألاف من القطط الضالة التى تقاسى العناء ، فهلا يزال ميسوراً الأرتقاء إلى منطقة الفكر عن طريق الجهود الأدبية ؟ عطلّ تيار إدراكك لحظة ، وتطلع فى أغوار نفسك ، واقبض على الصور الذهنية التى تتكون وتتلاشى هناك ، فما الذى ستراه ؟ من المؤكد أنك سترى صوراً تافهة من حب النفس ، ولكن أكثر منها تفاهة ، صور المنغصات . وليست طبيعتنا نبيلة ولا هى سخية ، فنحن نذكر الهنات أكثر مما نذكر المروءات ؛ ويحدث أن نكون قد عشنا أياما فى منزل أو فى بلد أجنبى ، دون أن نلاقى سوى التكريم ، ولكن حالما نشعر بالمضايقه أو الإساءة ننسى السعادة وننمى التذمر الرخيص ، إننا سريعو الإحساس بالإساءة ودائماً متحفزون ، كما أن الاهتمام بمصالحنا الذاتية يستبد بنا ، وكلما تقدمنا فى السن ووجب علينا أن نكون أكثر تجرداً ، نصبح على النقيض أشد تحفزاً للفرصة المواتية ؛ وأن مظهراً مدروسا للصارحة نحرزه على مر السنين يحجب حقائق قد لا نريد عرضها للفحص ؛ إننا لا نعرف ما قد تكون عليه نفس أحد الأوغاد ، ولكننا نعرف جيداً مما تركب نفس رجل رطيب ؟ وهو شىء فظيع ،

---

(١) الكاتب يمقت بشدة عملية جمع المال فى وسائل المواصلات العامة بدعوى الأعمال الخيريه ، ويعتبرها نوعا من التسول الذى يعاقب عليه القانون .

وهذا هو الاعتراف الخافت الذى نهمسه جميعا ، وإذن فلا عجب أن امتلأت عقولنا بمحصول خصيب ليس من التفاصيل التافهة فحسب بل من خسيس الرؤى بدلا من الصور الذهنية النبيلة ، ولا يستطيع فكر جدير بالاسم أن يصدر قط من نمو مقيت ، ولكن كما أننا نستطيع ، أن نؤثر الصحبة الكريمة على الصُحبة العادية أو ماهو أسوأ ، وأن نفضل الكتب الدسمة على الهزيلة ، كذلك نستطيع أن نستبعد الفكرة الخسيسة بعد سحقها ، ونستدعى أفكاراً أفضل ، وكما نتعلم أن نجلس معتدلين ، أو ألا نُطْلق العنان ، حتى فى خلوتنا ، لحركاتنا وسكناتنا ، نستطيع أن نطرد ضيوف الروح الذين لا تشرفنا صحبتهم ، وسيكون جزاء هذا البدء المتواضع القداسة مزيداً من الميل للإنصاف ومن المشاركة فى المشاعر وهذا مظهر من مظاهر الذكاء ، ويتميز الطيبون من الناس عموما بالتفكير السليم ، فإن لم يكونوا كذلك بدا الأمر غير طبيعى ، وانتصرت بخسه تلك الأجزاء السفلى من ذاتنا . الأجزاء المتمردة المتأهبة دائماً للتألب .

□ الأفكار الرفيعة بين طيّات الكتب :

إذا أردت استخدام الكتب كحافز للتفكير ، فلزام ألا تكون كتبا لمجرد التسلية أو لتهيئة عقلك للنوم ، بـل أن تجعله على عكس ذلك ، ساهراً متيقظاً .

□ وماهى تلك الكتب ؟ :

هذه الكتب أنت أفضل من يعرفها ، أما أنا فلا أعرف عنها أى شيء ، فالكتاب كالمنظر الطبيعى ، حالة من الإدراك الوجدانى ، يختلف باختلاف القراء ؛ فقد يوجد كتاب ما ، أو نبذه ، أو مقال فى موسوعة للمعارف أو قصاصة قديمة من صحيفة يومية دفعتك للتفكير يوما ما ؛ ويحتمل جداً أن تكون واحداً من أولئك النادرين الذين تكفيهم بضعة أسطر مكتوبة غذاء للفكر ، لأن أفكارهم على حد قول لامارتين ، تفكر نفسها ، وقد يكون الشىء الذى يستنهضك شعراً ، أو تاريخا ، أو فلسفة ، أو علوما ، أو علوما أخلاقية مثل تقدم الجنس البشرى ؛ وبعض الناس يداعبهم الكرى وهم يطالعون كتابا ، يجدون متعة فى مجلة يظنون أنها أكثر إيجازاً أو أفضل بالنسبة لمستواهم . طالع المجلات إذا كانت تساعدك على الفتكير ، أو بتعبير آخر ، إذا كانت تترك فى عقلك صوراً ذهنية تظل حية باقية ، بينما تكون قد نسيت من أين أتت ، طالع شعرًا لشوقى .. بسرعة أربعة أبيات يوميا ، إذا كان لمقتطفات

الشعر عليك ذلك الأثر السحرى الذى لها على بعض الناس ، أو غيره من عمالقه الشعر العربى أو العالمى مثل شكسبير[1] أو جوته ..، طالع عالم الجبر ؛ طالع حياة عظماء المخترعين ، أو حياة عظماء رجال الأعمال ؛ طالع ذلك الصنف من الكتب الذى تعرف أنت ، دون أحد سواك ، أنه منتج للفكر بالنسبة لك .

□ وأية كتب ينبغى أن نطالعها لتهيئة التفوق لنشاطنا الفكرى ؟ :

إن المبدأ الذى لم يفشل قط فى تهيئة التفوق لنشاط المرء الفكرى هو الشعار الأنيق : « لا تطالع الكتب الجيدة – الحياة أقصر من أن تتسع لذلك – طالع أفضلها فقط » ، هذه الوصفة ا لبسيطة لها من التأثير الناجع ما للهواء النقى والطعام الجيد على صحة البدن .

وهكذا إذا أردت أن تشتد فى القدرة على ابتداع أفكار سليمة ، وإذا أردت ألا تعرف قط أية فترة من التبلد فافعل ما فعله أفاضل الجنس البشرى منذ أن ظهرت الكتب ، مهملا بإصرار كل ما ليس فى الذروة منها . وإذا تمرد فى أعماقك أى شيىء ضد ذلك فمزاجك غير مهيىء لمطالعة هذا الكتاب ، كما أن فن التفكير ليس من الأمور التى تستهويك .

إذن فوداعاً ياصاحبى ، ولكن لنرجىء الفراق حتى تكون قد دونت قائمة بالكتب العظيمة الشأن التى لا تخلو من الجاذبية بالنسبة لك ، وحتى تكون بضعة شهور من الخبرة قد بينت لك أى كتاب منها يغدق عليك لذة خالصة غير مشوبة ، وستؤلف هذه العشرون أو الثلاثون مجلداً مكتبتك ، أو بتعبير آخر ، ينبوع تفكيرك ، بهجتك ، وحين ترى الناس يغبطونك على متعتك ، تصبح هذه الكتب معجزة لك .

فهل معنى هذا أنه ينبغى علينا أن نتخلى عن الأدب المعاصر ، وأن نقصر حياتنا على تراث الماضى ؟ كلا ؛ بالتأكيد ، فما من شىء يساعد الفكر مثل أسئلة «هنا والآن» ، فإذا لم تكن منسوبا لعصرك فأى عصر تنتسب إليه ؟ فمن واجبنا أن نطالع الشعراء المحدثين والروائيين المحُدْثين وننشد الفن فى أبعد تطوراته .

ومن المؤكد أن الأدب ، وخاصة اللون الرفيع من الشعر ، الذى ينبغى أن يكون لحمة كل قارىء مثقف وسداه ، يمد المرء بما يحتاج إليه من فكر مُعبّد إلى أقصى

---

(١) وله بيت شعر جميل يقول فيه :

خير جـــزء فـــىّ روحـــى وهـــى بالتأكيـــد روحك

يعنى بالروح الآلهى ما به من حياة الخير والفضيلة والحق وهذا شىء من الله ليس لغيره صُنع فيه فأضيف إليه .

حد ؛ وعلى أية حال فليس الأدب هو ميداننا الوحيد ، بل إن الفلسفه والعلوم والتاريخ المعاصر وما نسميه بالعلوم الأخلاقية ، جميعها تضع فى طريقنا تفسيرات للعالم والإنسان منتجة للفكر بصورة باهرة ، فالكتب العظيمة ، والرجال العظماء ، والمسائل العظيمة ، أو المبادىء العظيمة ، والحقائق العظيمة ودروسها ، كل ما يتعارض مع التفاصيل التافهة لا محيص من أن يسفر عن فكر رفيع ؛ وكلما اشتد انشغالنا اشتدت صرامتنا فيما ينبغى أن نتخيره ، ويظهر كثير من الغارقين فى العمل حتى آذانهم ، خاصية ثقافية نادرة تثير دهشتنا ، والسبب دون خلاف يعود جزئيا إلى أن العمل الشاق ، وحتى التعب الذى يخلفه ، يحملان فى طياتهما ضربا من النبل ، ولكنه يعود أيضا إلى عدم وجود مكان للمشاغل العقلية غير الرفيعة بحياة مثل هؤلاء الناس .

وينبغى على الأدباء الذين يتوقون لمنح ابنائهم زبدة كل شىء ولبابه أن يحزموا بعزم مكين توافه المؤلفات من كل الأصناف ، ويقذفوا بها بعيداً عن متناول أيديهم كما لو كانت السم الزعاف ، ومثار العجب أن الأذكياء من الناس الراغبين فى القيام بما يسعه الجهد فى هذا السبيل لا يفطنون إلى أنه لا ينبغى ترك أى كتاب فى متناول أيدى الصغار يقل فى مرتبته عن «ألف ليلة وليلة» أو «روبنصن كروزو» أو « قصص عرائس الخيال »[1]. أفلا تريد لصغارك سرفا فى سرعة الإدراك. والرشد ؟ افتح النافذة ، وانصت لحظه واحدة لأحاديث الشباب فوق العشب فى عطلة هذا الأسبوع ، ومن ثم يأتيك الخبر اليقين ، سيغمرك السرور إن استطعت أن تعلمهم إيثار دماثة الطبع على العجرفة الفظة حين يرونها . ولو أن أمًّا اعتادت أن تتلو على صغيرها قليلا من جيد الشعر ، فإن أذنيه وقد ارتشفت مبكراً من مثل هذا الرحيق المُلهِم ، سوف تعاف دائماً بعد ذلك كل شراب مر المذاق !. وهذه بلاشك نتيجة باهرة حقا !.

الملاحظة

« عوِّد نفسك على الملاحظة تنمِّى عقلك وتزرع فيه الذكاء » .

القدرة على الملاحظة الدقيقة والسريعة هى أهم الصفات التى تميِّز أفضل المفكرين والمخترعين والباحثين . وكانت سببا مباشراً للكثير من الاكتشافات والابتكارات والتجديدات والاختراعات .

---

(١) من تأليف برو (Perrault) .

فى عام ١٨٩١ كان الصبى أليكس Alex يعيش مع أسرته فى مزرعة باسكتلندا ، كان فى العاشرة من عمره ، وكان يلعب مع أقرانه الصغار بالقرية فى أيام الأجازات ، إلا أنهم كانوا يخرجون لصيد الأرانب البرية فى الغابة التى تحيط بالمزرعة .. كلّ على حده .

كان الأصدقاء يلاحظون أن اليكس عندما يخرج للصيد يعود بعدة أرانب ، أما هم فلا ينجحون فى اصطياد أرنب واحد ، حتى عندما كانوا يخرجون جماعات .. لا يصطادون سوى أرنب واحد فى النادر .. فيتملكهم العجب ،ويسأل الواحد منهم الآخر :

لماذا يصيد أليكس عدة أرانب بريه فى كل مرة يخرج فيها للصيد بينما لا نفلح نحن فى اصطياد الأرانب حتى بعد أن اصبحنا نخرج فى جماعة ؟! .

وذات يوم التقوا به وهو عائد من الصيد يحمل أرنبين .. كانت أيديهم خالية كالعادة .. سألوه السؤال الذى كان يشغل بالهم .. وقف اليكس صامتا لا يتكلم .. ثم قال بعد تفكير :

إذا أردتم أن أجيب على هذا السؤال فدعونا نخرج جميعا لصيد الأرانب البرية فى الأسبوع القادم ، لأرى كيف تصطادون واستطيع الإجابة على سؤالكم .

اتفقوا على اللقاء فى الأسبوع التالى لتخرج كل جماعة الصغار لصيد الأرانب البرية .

فى الأسبوع التالى سار أليكس وسط المزارع فى الغابة .. وفجأة أشار واحد منهم إشارات صامته سريعة وهو يهمس بأن هناك أرنبا بريا يأكل الحشائش بين الشجر . توقف الجميع صامتين ، ووقف أليكس يراقب كيف يصطاد أصدقاءه ؟ .

تقدم صبى منهم على أطراف أصابعه ، يتحرك فى صمت ، وعيناه على الأرنب يراقب أى حركة تصدر منه ، ويتوقف جامداً إذا رأى منه أى حركه ، وظل يحملق فى الأرنب وهو يتقرب منه حتى أصبح على بعد خطوة واحدة . توقف لحظه ثم قفز قفزة كبيرة ليمسك به ، إلا أن الأرنب قفز مبتعداً فى اللحظة الأخيرة واختفى وسط المزارع .

التفت الصبية إلى اليكس الذى كان يراقب ويلاحظ بدقه . ولم يتكلم أليكس حتى وجدوا أرنباً آخر يقف وسط المزارع .. أشار أليكس إلى صبى آخر ليتقدم لصيد الأرنب . لاحظ أليكس أن الصبى يتصرف بنفس الطريقه ، وكانت النتيجة

قفزة من الأرنب ولى على أثرها هاربا مختفيا فى النهاية .

وهنا تحدث أليكس إلى الصبية فقال لهم :

« أنا كنت اصطاد مثلكم زمان ، ولذلك كنت أفشل فى الصيد . كنت أحملق فى الأرنب البرى أراقبه وأنا اقترب منه ، وكان الأرنب يلمح لمعة الضوء فى عينى ، فيقفز هاربا . عندما لاحظت هذه الملاحظة تعلمت أن اقترب من الأرنب من غير أن أحملق فيه . صرت أراقبه بدقه ولكن ، بجانب عينى فلا يلمح لمعة الضوء فيهما .. وأنا الآن أصيد الأرانب بهذه الطريقة بسهولة .

وقف الصبية مبهورون بالفكرة وبتجربة أليكس فى الملاحظة التى لاحظها واستفاد منها . وعادوا يصيدون الأرانب . يقتربون منها بالطريقة التى شرحها لهم أليكس .. واصطادوا أرانب بريه كثيرة كما كان هو يفعل .

عندما بلغ أليكس عامه الثالث عشر من عمره غادر المزرعة التى كان يعيش فيها وسافر إلى لندن حيث عاش مع أخ له أكبر منه ، وعمل لمدة خمس سنوات موظفا بمدرسة الطب فى مستشفى «سانت مارى» ، وفاز أليكس أثناء دراسته بجوائز علمية كثيرة ، فلما تخرج من المدرسة منحته المستشفى وظيفة باحث بكتريولوجى (باحث فى الجراثيم) وظل طيلة حياته مرتبطا بعمله بالمستشفى .

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى عمل أليكس ضابطا طبيبا برتبة (كابتن) وتخصص فى دراسة وعلاج الجروح ، تأثر أليكس كثيراً أثناء السنوات الأولى من الحرب بسبب الارتفاع الكبير فى نسبة الوفيات من الجروح التى كانت تتلوث بالبكتريا . وكان يجرى أبحاثا على البكتريا القاتلة . أكثر البكتريا فتكا كانت بكتيريا «ستافيلوكوكس» وكان يضعها فى أحواض زجاجية مغطاه ، كالأطباق .

وذات يوم وقع الغطاء الذى كان يغطى أحد الأحواض فتلوثت البكتريا ببعض التربه ، نشأ عن هذه التربة عفن أفسد حوض البكتريا .

تقدم أحد مساعدى أليكس فى المعمل وقال له :

هذا الطبق يادكتور فسد تماما لأن بعض العفن نشأ فيه بسبب تلوثه سألقيه بعيدا .. ولما كان الدكتور أليكس قد تعود على الملاحظة منذ كان طفلا صغيراً يلعب فى المزارع وهو صغير يصيد الأرانب البريه ، فقد ألقى نظرة واحدة فى الوعاء ، وحدّق فيه . كان العفن الذى تكون من التربه قد أفسد كل البكتريا حوله .. قتلها ! .. وصاح انتظر .. هذا أمر عجيب .. دعنى أفحص هذا الطبق جيداً تحت الميكروسكوب غرق أليكس فى عدد كبير من التجارب .. زرع العفن فى أحواض

أخرى وراقب الميكروبات وهى تموت .. لم يذكر التاريخ أنه صاح صيحة فرح قال فيها :

– وجدتها .. فهمتها .. كما فعل زميله فى الإنسانية أرشميدس !! .

ولكنها بالتأكيد كانت لحظة تنوير عظيمة ، فهم فيها سراً من أسرار الحياة .

– هذا العفن ينتج «مادة ما» هى التى تقضى على البكتريا .

واستطاع أن يستخلص من هذا العفن تلك المادة الفعالة وأخذ يجرى بها تجارب على حيوانات المعمل ، وحقق نتائج باهرة . وفى عام ١٩٢٩ م نشر بحثا طبيا علميا أثبت فيه أن هذا العفن الذى ينتج من التربة هو قاتل قوى للميكروبات التى تسبب الأمراض دون أن يفسد النسيج البشرى .

وكانت الماده هى أشهر مادة قاتلة للميكروبات وأطلق عليها اسم :

« بنسلين ... مضاد حيوى » .

اكتشفه أليكس الكبير .. الكسندر فلمنج

نال من أجل هذا الكشف العظيم لقب «سير» عام ١٩٤٤ م ، ومنح من أجله جائزة نوبل للطب عام ١٩٤٥ م .

● **الكومبيوتر والذكاء** : استطاع الكومبيوتر أن يرفع مستوى ذكاء الناس (الأطفال) ، ويقول علماء العقل البشرى فى الذكاء : إن الكومبيوتر إذا عمّ كل البلاد فإنه يستطيع أن يرفع مستوى ذكاء الجنس البشرى إلى درجة «حدوث ثورة عالمية فى الذكاء» .

إذن .. الكومبيوتر لاغنى عنه لكل أسرة .

الفصل السابع

النجاح والإبداع

معنى الإبداع أو العبقرية

هذه كلمة أخاذة ، ففكرة إنتاج شيء من لا شيء ، أو استبدال الحركة بالسكون تبهج حتى الأطفال .

هل يعطى «الفكر الخلاق» معنى العبقرية ؟ أجل .

ولكن تذكر أن أى خلق من أى وصف ، سواء أكان صادراً من أقل الصنّاع شأنا أم من أكمل الناس ذهنا ، إنما هو نتاج حالة عقلية ينبغى تسميتها بالعبقرية .

أما هدف الكتاب الحقيقى فهو أن يجعل الفكر ، حتى فى أرفع صوره وأشكاله فى أى نطاق ميسّر لنا جميعا .

وإنه لمن الأمور المستحبة أن نطالع ما كُتِب عن العبقرية والعباقرة فحيواتهم المليئة بالجهود الرائعة .. تؤثر على عقولنا ، ونحن نشعر بنوع من الفخر بهم ، وهذا الفخر يشهد بأصلنا المشترك ، ويضيف حيوية جديدة لرغباتنا التى هى أكثر نبلا ، وأيضا فإن وجود هؤلاء المتفوقين من الناس بيننا منشّط لعقولنا منقطع النظير .

بيد أن العبقرية تعتمد على القرائن والمعلومات التى فى متناول يدها ، حتى أن أرشميدس نفسه ما كان ليستطيع أن يصمم مخترعات أديسون ، كما أن العبقرية ليست عبقرية فى كل الأوقات على الرغم من تفوقها فى كل حين ، فقد كانت هناك فترات طويلة بين إشراقات العلماء المسلمين فى عصر الحضارة الإسلامية وحضارة أوروبا فى العصر الحديث . وللشعراء دراية بالوحى ، ولكنهم يعرفون أيضا فترات من النضوب والجفاف يعيشون خلالها على الرجاء والإيمان والذكرى ، ومن جهة أخرى ، فإن لنا نحن القوم الأقل تفوقا ، فترات نتألق فيها ، ونشعر خلالها بأننا فوق ذرة الموج ، كما يساورنا أفضل تفكير ونؤدى أفضل عمل ، فإذا ما أدت بنا الحماقة لأن نتصور ، حين ننعم بهذه الخطوة ، أن موهبتنا ليست من الطراز الأول فسرعان ما يبطل أثر الرقيه ويزول سحرها .

وقد نذهب إلى أبعد من ذلك ، فنقول إن كل حياة بارزة على أى وجه ، حتى وإن لم يطلها أثر متين ، إنما هى إبداع من طبيعة فنية أحيانا ، أو أدبية فى أحيان أخرى ، وهناك أشخاص ذوو حصافة ولطف ، لن يتسنى للعالم أن يعرف أسماءهم

قط ، بيد أن حياتهم تبدو من الروائع لأولئك الذين عرفوهم جيدًا ، وقد ولد أولئك الناس ولهم مثل مالنا من فرص ومواهب عقلية ، ولكنهم فطنوا لما يمكن عمله منها وحققوه ، والأمثلة فى العالم ليس بالقليلة وعلى مر التاريخ ، نرى هؤلاء العباقرة الذين أحبهم الناس ورأوا فيهم مثلهم الأعلى الذى لا ينضب معينه ، رجالاً ونساء ، ثم أليس للمفكرين المسلمين القدامى والمحدثين والعباقرة من جاذبية وفتنة ؟ .

وازن بين هؤلاء القوم الذين فعلوا أشياء ، أو كانوا هم الشىء ، بأولئك القوم الآخرين الذين لم يفعلوا أى شىء على الأطلاق ، وكان من المحتمل ألا يكونوا شيئاً لولا قدرة متواضعة على تدوين ما كان يفعله الآخرون ، أيهما هو المبتدع الحقيقى ذلك الشخص الذى يبتدع الوحى أو من يتلقاه فحسب ؟ .

(ب) أصل الإبداع : الأفكار

إن أصل الإبداع سواء أكان نظرياً أو فنياً أم عمليا هو ، بالتأكيد فكرة . وتنمو هذه الفكرة بالتدريج ، عن طريق الاتصال بجاراتها أو باستخدامها ، وتصبح مأربا متحكما لا يمكن مقاومته ، وفى النهاية تسفر عن ضرب من الإبداع فها هو ذا « تين Taine » يقع فى غرام قطة ضالة ، فراح ينتج المقطوعات الغنائية الشهيرة عن القطط ، ويتحدث عنها فى كلمات رقيقة تتغلغل إلى شغاف القلوب وبعد حين تأتى الثمرة منزلا لرعاية الحيوانات الضالة ! وثمة رجل آخر نظر إلى هذه القطة المسكينة وهى تتطلع فى ضراعة إلى أحد المارة الغافلين ، ومن المحتمل أن يترجم هذا المنظر فى لغة غثة ركيكة .. فلا يلتفت إليه أحد .

فالبساطة خاصية جميع الأفكار الخلاقة ، والمشكلة فى وضوح هى كيف يمكن إحراز مثل هذه الأفكار التى تملأ الروح وتصوغ الحياة ؟ .

إن روحنا خضم ، وعلى الرغم من أن إمكانياتها وانطباعها ومرونتها ، وقلما يحدها نطاق معرفتنا ، فليس فى الاستطاعة إنكارها ، وهناك مناطق كاملة فى أرواحنا لا تشترك فى شىء مع جدب حياتنا اليومية ، يكشفها الإلهام ؛ وهو حالة التوتر الشديد التى يهيئها لنا الوجدان أو الفصاحة أو الموسيقى أو مجرد قدح من القهوة القوية ، كذلك كثيراً فى حياتنا اليومية ، ولكنه أكثر فى فترات معينة منها فى فترات أخرى ، نحس أن رؤيتنا العقية أشد حدة مما ظن الناس ، بل مما ظننا نحن أنفسنا ، وقد نسمع قوما يتحدثون ، وبينما تمر الكلمات بعضها ببعض ، نسجل البواعث عند

الناس كما لو كنا نطالعها ، وقد نتوجه لسماع محاضرة ، فنقدّرها أو ننقدها ، خلال إلقائها ، كما حدث نادراً من قبل ، فنحن نعي كل ما يسطع داخل عقولنا ، وفى غضون ذلك نعرف إن إشراقات أقل جلاءً قد تستجمع ضوءاً إذا راقبناها دون إدعاء بأننا نفعل هذا ، وقد يأتى فى أعقاب ذلك وهج نادر .

أما ما نراه عندئذ ، وما ندونه أحياناً على قصاصات من الورق نحرص عليها حرص البخيل على ماله ، فهى البذور الحية التى ينبث منها الإبداع ، أو التى تنمو منها حياة أكثر امتلاء ، وقد تكون قصيرة العمر غير مستقرة ، أو حجبها عن البصر مدافعة غيرها لها ، ولكنها لا تختلف فى طبيعتها عما يصبح فى النهاية ، بالعقول الموهوبة الرفيعة ، عمل العبقرية ، أما المشكلة فهى فى طريقة إمكان مضاعفتها ، أو تقويتها ، أو فوق كل شيء ، طريقة إمكان الوصول إليها حين تتراجع إلى منطقة اللاوعى أو العقل الباطن .

(ج) كيف نستطيع التوصل لآرائنا الخاصة ؟

إن الفلاسفة الجديرين بالإسم حقا يراودهم جميعاً الطموح بأن يقدموا تفسيراً عن العالم ، ويدرك معظمهم مقدار ما فى تلك المحاولات من تكهنات مجردة ، وعلى النقيض يؤكد معظمهم تزكيتهم لبعض العمليات العقلية التى نستطيع عن طريقها أن نتوصل للحق ، هذه الكلمة التى تدل على الإشراف الذى يصحب احتكاك عقلنا بما نسميه الحقائق ، وحين نعى مثل هذا الإشراق يصل بحثنا العقلى إلى ختامه ، ويأخذ الهدوء مكانه من العقل .

يبحث العقليون من العلماء أمثال أرسطو ، وفلاسفة المسلمين ، وديكارت ومعظم العلماء المُحْدثين ،عن هذا الإشراق فى المنطق السليم المبنى على القرائن ، ويضعون قواعد للعمل بموجبها ، وتحقيق النتائج التى تسفر عنها ، فتبدوا فكرتهم كمجموعة علمية أُحسن وضعها ، وترتيبها فى تتابع منطقى تغرى الزائر بالوقوف أمامها ، ليقوم بفحصها الشعراء وأقطاب التصوف ؛ وجميعهم فى الشرق والغرب من ذوى الإشراق الروحى ، فعقولهم تسبح سراعا إلى حيث لا يعلمون ، وتمكث هناك حيث تحتويها نشوة التأمل ، وحين يتحدثون أو يشعرون فسهبون فى الكتابة عن فيوض النور التى تنتجها عملية التأمل التى تضفى عليهم البهجة .

ويختلف هذا تماماً عن التوتر المحموم الذى يكاد المرء أن يلمسه فى « أفكار » بسكال التى هى نتاج موهبته العقلية المجردة ! .

ولا يوجد فرد واحد ، رجل أو امرأة لم يختبر شيئاً من الإشراق الروحى .

وللمحدثين من ذوى الجلاء العقلى غير المقيد ، مثل نيومان وبيرجسون ، صلة وثيقة بالمتصوفين ، ولا يستطيع قوم لهم مثل هذه الثقافة ، ومثل هذه القراءة المستفيضة إلا أن يعرفوا قيمة المعلومات الدقيقة ، ولكنهم يؤمنون باستخدامها بطريقة منطقية رفيعة . وكانت تراود باستير ، دون انقطاع ، نوبات من الجلاء العقلى السائب التى كان يجد بعد ذلك عناءً شديداً فى كبحها وإخضاعها لقوانين العلم العادية ، ومثل هذه النوبات من الجلاء العقلى ليست إشراقات روحية ، بل هى ثمرة مقارنات خاطفة كالوهج ، أو متناقضات من مجموعات من الصور الذهنية المختزنة فى العقل ، والتى تزيد من مرونتها على المعادلات العقلية التى فى أغوارنا ، والتى يسميها نيومان «فكرية» باعتبارها نقيضاً لغيرها وهى « الواقعية » ولو طالعت كتاب « **قواعد الاتفاق** » أو كتاب « **التطور الخلاق** » لتحققت من أن معالم فن التفكير الواضحة هنا قد زاد اعتمادها قطعاً على الخبرة وقل اعتمادها على مجرد الفرض ، فهذه أكثر من النصيحة التى أسداها ديكارت أو فولك ، أو هربرت سبنسر ، ولكنها تستهدف بالضبط نفس المأرب ، وإن عملية انطواء المرء فى شغف على مشاعره الباطنيه لأفضل من عملية ظاهرية ، ولكن الهدف المنشود فى كلا الحالين هو إحراز أفكار خصبة مثمرة . وبالنهج. ذاته يصعب مطالعة ما يقوله الشعراء عن إلهاماتهم ، أو ما يقوله الفنانون عن فنهم دون أن ندرك أن هؤلاء الناس ، الميالون دائماً لتوجيه قدراتهم لأحسن المناحى ، يضعون فى الواقع لأنفسهم مبادىء فن التفكير ، وتصف كتابات رجلين من المحدثين هما نتشه وباريه ، طريقه لإنتاج الفكر المبدع .

فهل فى الاستطاعة تلخيص ما يقوله هؤلاء العلماء فى هذا الموضوع ؟ طالع ما يكتبون ، وانصت لما يقولون ، وحلل طرقهم ، واختبر موقفهم فإنك ستجد أنهم يعيشون ويفكرون وهم ملتصقون قدر الاستطاعة بمبدأين أساسيين :

(١) كن فى إهابك .

(٢) التمس نفسك .

(د) كن فى إهابك [١]

(١) « كن أنت نفسك أو كن فى نفسك إذا شئت أن تبتدع شيئاً مبتكراً » [٢]:

---

(١) الإهاب : الجلد وهو مركز الحواس ، والعباره تعنى التعنت فى الانتباه والإرادة .

(٢) فن التفكير : ارنست دمنيه ، ترجمة رشدى السيسى مراجعة مصطفى حبيب .

هذه حقيقة واضحة لا يختلف فيها اثنان ، فكيف تستطيع أن تفعل أى شىء لن يكون حقا فعلك إذا لم تكن مدركاً لشخصيتك ، أو إذا لم تكن بالضبط ذلك الرجل الذى تعرف أنك تستطيع أن تكونه .

وهناك عقبتان رئيسيتان فى طريق رجل يرغب فى أن يكون فى إهابه الإدعاء أو التصنّع ، والاستخذاء أو التردد . وقليل من الناس هم الذين لا يعرقلهم ، ولم يعرقلهم فى أية مرحلة من حياتهم إحدى هاتين العقبتين .

والمحاكاة والتقليد أو ما دعوناه التصنّع معوّق للإبداع الحقيقى ، وهو يصبح فى النهاية وبالأعلى الخلق . وعدم الإخلاص بالفعل أو القول أو الكتابة ، من شأنه أن يدمر الشخصية ويؤدى إلى نتائج سلبية ، وبقدر ما تزيد محاولتنا لتبدو على غ ير حقيقتنا ، تقل فرصتنا لنصبح قادرين على استكمال ما نستطيعه من نمو حقيقى .

والترد أو انعدام ثقة المرء فى نفسه هو الخطأ الثانى الذى يمنعنا من أن نكون فى إهابنا ، وله الحق فى قدر من الاهتمام والتعاطف أضخم بكثير من قرينه المماثل .

ويلزم التمييز بعناية بين انعدام ثقة المرء بنفسه وبين الخمول الذى كثيراً ما يتنكر هو الآخر فى زى التواضع ، ولا يستطيع الكثيرون أن يكونوا قط هم أنفسهم لأنهم يعجزون عن أن يصمدوا طويلاً حتى يشعروا بشخصيتهم الخاصة ، فهم الرجل الذى ينصتون إليه ، أو الكتاب الذى يطالعونه ، إنهم ليسوا فى إهابهم ، وفى الطفوله ، يستطيع الطب أو التمرينات الرياضية علاج هذا الضعف .

فماذا يُستطاع عمله ؟ قد يتخاذل الكاتب فى إحدى قصصه الرائعة متوهما أنه من الأفضل أن يكون إهابه ويترك هذا الميدان لغيره ، وهذا حل قانط للقضية ، فقد يهبط عليه الوحى بعد عام أو عامين ولن يزايله بعد ذلك أبداً ، ولعل الجهد الذى يبذله كأحد رجال العمل يحفظ قوة إرادته كفنان فى عنفوانها . ويستفيد كل شخص بمزاولته مهمة ما ، خيرية أو ذات طابع آخر تفرض تبعة ذات سمات محددة ، وبوجوده فى صراع من أجل فكرة حقيقية ، وبتحدثه عنها علانية ، والفنان الذى ليس له حرفة أخرى ، ويشعر بأشباح جاثمة على صدرة ، ينبغى عليه أن يصنع شيئاً للفرار من العذاب والإذلال .

وسنجد مهما كانت الطريقة التى سنلجأ إليها ، أن أى مثل أعلى أو فكرة قوية فينا ، تشفى التخاذل ولا تخلق شدة مراس فحسب بل جاذبية أيضا ، حالما نشعر

بأية قوة من هاتين القوتين تملأ عقولنا وحياتنا ، سنشعر أيضا بعدم القدرة على مقاومتهما ، وهكذا فمسألة كيف يكون المرء فى إهابه هى فى الختام مسألة خُلقُية ، بمعنى كيف يستخدم المرء مواهبه العقلية على أكمل وجه ؟ .

(هـ) التمس نفسك

حين نسرف فى الانتباه للأمور الخارجية لا نكون عائشين مع أنفسنا ، وقد نحس أننا فى أقصى حالات الوعى بشخصيتنا حين نكون فى ذروة النشاط ، وحين ننكبّ بكل انتباه فينا على متابعة موضوع ما ، ولكننا لا نحلم أبداً ، نستطيع أن نقول أننا نلتمس أنفسنا حين نكون فى خضم هذه الحالة التى تعج بالعمل ، بل على النقيض نكون تواقين بأن ننشد ختامها ، ونحنّ لفترة من التأمل الهادى لنمتلك روحنا فى سلام ، واللغات مليئة بالاستعارات التى تصف تلك الحالات الوجدانية المضادة .

وإننا « لنجد أنفسنا » فى أى جو عقلى يستعيد لذاكرتنا ذلك الجو المتعلق بمجرى ذكريات فى عزلة ، وبحلم يقظه فى الشفق الحالم أو فى منظر خريف هادىء ، وبأزمة معنوية تعيد لنا حيويتنا دون أن تسحقنا ، وإننا لنعرف أوقات من الجيشان الوجدانى قلمانعرف طريقة انبثاقها ، ولكننا نشعر إبانها بانعزالنا عن بقية العالم ، ولكن بتعاطف وتفاهم مع كل شىء ، ومن ضمن البواعث لذلك ، كتاب عظيم ، حضور عبقرى ، إحدى ندوات الشيخ الشعراوى ، موسيقى ، ولكن توجد بواعث أخرى أحياناً تكون غير محتملة كتلك التى تتبعها ظاهرة التنويم المغناطيسى التى تتغلغل بنا إلى حيث توجد أغوارنا الحقيقية . ولاشك أن عازف الكمان ، حين إحتضانه لآلته فى شغف أخاذ ، يحبها لما تضفيه عليه ، ولكن التألق الناعم الذى يكسو وجهه يعنى بداية نشوة مبعثها استمتاع الروح بنفسها ، وكل الطبائع التى تمارس النشاط الفكرى ، وكل الطبائع المثمرة تنزع لمثل هذه الحالات .

وإننا لنستطيع فقط أن نصل إلى أقرب وأدق ما هو شخصى فينا أعنى عقلنا الباطن ، بترك عجيج العالم حيث هو ، والبحث فى أعماق السكون عما يميزنا عن بقية الرجال والنساء .

□ **وفيما يلى نسوق ما يبدو أعظم القواعد العملية للنجاح فى الحياة وتحقيق التفكير المُبْدِع :**

(١) تلمّس مزاجك الخاص ، ومعنى مزاجنا هو الطبقة الباطنية من أحاسيسنا البالغة الخصوبة والتى ستقدم أكثر الثمر ، وبعبارة أخرى أنه يعنى الأشياء فى أية صورة يُحتمل أن تكون ، والتى تدور حولها أفضل أفكارنا ، فماهى تلك الأشياء ؟ .

« إنها المادة للتفكير التى ينبغى أن نتناولها بأكبر قدر من اليسر وأكبر قدر من الاستمتاع » ، ويستحيل إمعان الفكر فى مبادىء للتفكير دون أن يعترف المرء لنفسه بأن ما يحاول فعله هو تخطي طريقه تقربنا جميعا من العبقرية ، والآن فإن العبقرية مبدئياً هى القوة الناتجه فى يسر ونعومة ، فالعبقرية لا تشق طريقها متثاقلة متجهمة أبداً . وحين يعرِّفها « بفون » **Buffon** ، بأنها «جَلَدَ طويل المدى» ، فإنه لا يعنى جلد الجهامة والعناد ، بل مثابرة الاستمتاع ، ومن ذا يصدق أن نيوتن ، خلال السبعة عشر عاما من بحثه عن قانون الجاذبية لم ينل اللذة الغامرة ، مما نسميه خطأً «عمله» إنما مما ينبغى تسميته ، استغراق ذهنه الساحر !، وليس يغرب عن بالنا أبداً أن العبقرية تستطيع أن تكرس لعملها مدى أطول مما تستطيعه الموهبة العادية التى تحتاج لفترات من الاسترخاء ، وعلة ذلك أن استرخاء العبقرية قائم فى شعورها بتأديتها لما تحب أن تفعله ، وتبغض أن تتخلى عنه .

إن مزاجنا هو أقرب الأشياء ألينا ، وفى متناول يدنا ، ولكن اقتناعنا به يستلزم خطأً أو خبره ، فالبحارة الأسبانيون الذين خرجوا إلى المحيط من مصبّ نهر الأمازون لم يستطيعوا أن يصدُّقوة الوطنيين وهم يخاطبونهم بالإشارات بأن الماء حول السفينة صالح للشرب وما عليهم فقط إلا أن يملئوا منه دلاءهم ، عبارة «عصية على البحث» لهى عبارة تنطبق ، فى معناها الشامل ، على معظم ما نقوم بعمله ومع ذلك فكلنا ندرك أن أكثر ما نحبه فى كاتب هو المؤلفات التى تعكس فى أصالة تامة موهبته الخاصة ومزاجه الخاص ، ومن الذى يطالع الأشعار الحديثة الثقيلة الظل ؟ إننا نهوى الأشياء التى توفر لنا الأثر بأنها تسكب انسكاباً ، ومرة ثانية فإن أى كاتب لا يدرك أن أروع صفحاته هى تلك التى سببت له أقل قدر من المشقة .

(٢) تكلم أو اكتب وفق مزاجك ، فالناس فى غمرة الحب أو سورة الغضب ، أو حين يستبد بهم اقتناع قوى أو رغبة عارمة ، يكونون دائماً فصحاء ، وقليل منا من لم تتح له الفرصة لسماع خطب أشد إثارة مما اعتدنا سماعه من أعظم الخطباء ،

يفيض بها أشخاص لا يهتمون قيد أنمله بالفصاحة ، ولكنهم فى حالة مرهفة من التوتر العصبى الشديد . ومن المعروف تماما أن الكتّاب ذوى الدعامة المعنوية العميقة يمتلكون مزاجا أوفر خصوبة من مزاج غيرهم من رجال الفن فحسب .

وهم جديرون بحق أن يُسمُّوا فتيان هذا الجيل ، وكل شخص يسير على مثل هذا المنوال يوفر مثل هذه النتائج .

وكل المدارس الأدبية الناهضة هى غراس خبرة عقلية تظهر لفئة قليلة من الكتّاب الموهوبين أن الحرية والفطرة من مستلزمات الإلهام .

وبعض الإيقاعات الشعرية – آخذين الكلمة فى أوسع معانيها – تجعل الكاتب أقرب إلى عقله الباطن من أية إيقاعات أخرى ، ويؤدى إيقاع شعر الملاحم هذه المهمة بتوفيق أكثر من غيره ، وعادة الاشتغال على مثل هذا الإيقاع الشعرى تنتج ما يكاد يكون إحساسًا بدنيا غامراً يبين لنا أننا نتصرف أوفق ما يضطرم فى أعماقنا من مشاعر ..

(٣) أعرف قيمة الحدس[1]، والحدس هو العمل العقلى الذى تنتجه بأعظم قدرة من الفطرة وبأقل قدر من سبيكة العناصر الخارجية المحسوسة ، وعلى حين بغته يشرق علينا تألق ذهنى لعلنا نكون قد حنّنا إليه أو لعلنا لا نكون ، وفى لحظة واحدة نرى ، كما يفيد اللفظ ، ما لم نره من قبل ، ونشعر بالطمأنينة التى تصاحب الاقتناع ، وهناك أمثله على الحدس منها : حل مشكلة استعصت علينا مدة لعلها طالت .. التغيير الذى يطرأ كأنه السحر على موقف بكامله كنا ننظر إليه بتشاؤم فاختلفت نظرتنا الآن تماماً .. وغيرها الكثير .

(٤) عامل ضروب الحدس برفق . وإنه لمن المبالغة أن نقول إن ضروب الحدس لا تأتى مرتين أبدًا ، ولكنها لا تأتى مرتين بنفس الجاذبية .. ولابد أن يسود الصمت فى الداخل والخارج ، وينبغى أن نكون منتبهين ولكن دون تلهف ،وفوق كل شىء ، دون رغبة فى الاستطلاع ، فالزائر الجميل كفراشة ، حالما نصطادها تفقد رونقها ، ومن ثم يلزم عدم اصطيادها .. ما أفضل ما فى ذكرياتك ؟ بالتأكيد هى الأجزاء التى لم تنبه ، وكلما ازداد إيجاز هذه الذكريات إزداد المنظر عمقا وتغلغلاً ! .

وليس معنى العمل بفكرة هو التركيز العقلى من الصنف المعتاد ، فالعرق الكادح لا يكفى هنا ، ومن الضرورى توفير عزلة مليئة بالابتهال مع فترة من التجرد والتهجد

---

(١) الحدس : الإلهام .

فى مجرى حياتنا اليومية ، وهوما دعاه تندال وهو يصف إنتاج المخترعات « إدمان الفكر» ، وما دعاه نيوتن « التفكير فيه كل الوقت » ويبدو كما لو كانت الرغبة الجادة لتحقيق الشيء بأكمله ينبغى أن تكون هى الشيء الرئيسى الذى يؤثر ، دون شك ، على عقلنا الباطن ، وخبرة معظم الفنانين هى أن صنف إنتاجهم قائم فى تمشِّيه مع جدية رغبتهم المركّزة .

وقد كان سير ولتر سكوت يطالع كتبا لا علاقة لها بموضوعاته ، وكان شارلز دكينز يطوف بالشوارع المهجورة ليلا ، وكان الكاتب إبراهيم المازنى يقطن بعض الوقت فى ترب الغفير ، يحاول أى منهما الإبطاء لا الإسراع بما نسميه الفكر الصافى ، ولكن ينبغى تسميته « **الفكر النهائى** » .

ويتألف العلم الصادق وإدمان الفكر من تعمير العقل بصور ذهنية متألقة ، أحياناً تستدعيها رغبتنا للقدوم ، وأحيانا أخرى تبتعث من ذكريات ترد عفواً دون أن يكون لها نسق معين .

وحين يأتى الضوء كاملا بقدر ما نستطيع توقعه ، فمهما فعلنا ، فلنتحاشى وضع رسم تخطيطى لما اكتشفنا فى شكل منظر شامل عام ، ووضع الأعداد والأقواس أيضا ، خلافاً للتفكير فإنهما ستيعدان أول ظهور له .

(٥) اغرس الأمزجة المستنهضة . توجد طبقة أكثر حساسية من الباقى نعرفها ونستطيع الذهاب إليها كلما أردنا ، وقد يقول عالم سلوكى إن حتمية الاستجابة عن تلك الطبقة ، فى منطقة وعينا تثبت أنها من خصائص علم الأحياء ، ولكن كل ما أريد قوله هو أننا نعرف بالخبرة أن الاستجابة مؤكدة ، وإذا عشنا طويلا مع أنفسنا أضفنا المزيد إلى شخصيتنا ، وإذا استعدنا وقائع أو فترات معينة أو صوراً من الشعور إلى حياتنا ، أعلينا قدرة الاستقبال الذهنى لدينا .

وحياتنا بقممها – التى نعرفها – من العاطفة والجهد والنبل ، أو الذكاء المتزايد ، هى منجم حقيقى للأمزجة المستنهضة ، وتكفى دقائق من الفراغ كى نستعيد لأنفسنا مثل هذه الأمزجة ، وحالما نعيها يبدأ وهج موهبة الحدس فى تألقه ، ويعرف الشعراء هذا جيداً ، وخبرتهم الخاصة ، المحصورة أحيانا فى مظهرها إلى حد يُرثى له ، هى المورد الدائم لإلهامهم ، وهم وكذلك ، الفنانون ، يشبهون الأطفال شبها عجيبا ، ولم يقطعوا أبداً الخيط الذى يصل مراحل حياتهم المختلفه ببعضها البعض ، كأناس يعيشون فى العالم ، وللعالم سيعملون ، وطفولتهم خاصة ، بثروتها من الانطباعات وعمقها فيها ، حاضرة لديهم فى أكثر الأحايين ، وما من شىء أكثر

استحضاراً لعبير الماضى من ذكرى الأعوام الباكرة ، وأية قصة عن طفولة لا تضفى علينا البهجة حتى وإن أعوزت كاتب القصة موهبة فذة !، والعلة هى أن كل الانطباعات المسجلة تتسم بالجدة ، وترتبط فى الحال بما يمتلكه من انطباعات هى أكثر جدة ، وبمرور الوقت تهتصر الحياة منا تلك الذكريات كى نهتم بما ندعوه مصارعتنا ، وهى فى معظم الحالات ، أى شىء غير نبيل ، ولكن حتى صغار السن من الناس يدركون قيمتها لأنفسهم ، وقد اعتدت أن أعرف كاتبا ، كان قبل معالجته لمقال ما ، يعود إلى انفعالات طفولته وأحزانها ، فيتخيل أنه وجد نفسه فى الحال بالجانب المثمر من نفسه .

وبعض الحالات الصعبة من منطقة الوجدان ، التى يصعب تعريفها فى حينها ، لأنها كانت خصيبة ، والتى لا تستهلك قط تماما على الرغم من كثرة الأخذ منها ، ما زالت تحتفظ بصفة ترددها بين الفينة والأخرى وبقدرتها على استحضار عبير الماضى . ومن ذا الذى لا يستطيع تذكّر مثل هذه اللحظات ، والذى ، إذا تذكرها لا يدرك أنه يكون حيث تكون روحه أكثر إيجابية ، على الرغم من أنها لا تفعل شيئا لتحطيم سلبيتها ؟ مثل هذه الخبرات ، المتجددة كلما أردنا ، يفوق أثرها أعواما من الجهد الواعى والدراسة الشاقة لتعليمنا ماهية الفكر المبدع وأين يكون ؟ .

□ كيف تنمّى قدرتك على الإبداع ؟ :

● إننا جميعاً نملك رصيداً من القدرات الإبداعية ، يمكن أى منا توظيفه فى المجال الملائم لميلوه واتجاهاته المهنية أو العملية أو الفنية أو غيرها .

● إنه بالرغم من أن شخصاً ما أمكنه إنجاز مثل هذا العمل فى الماضى ، فإنه لا يزال بالإمكان إنجاز عمل مثله ، بل ويمكن أن يكون أعظم منه ، فى الحاضر أو المستقبل ، وأنه لا تزال هناك إنجازات إبداعية عديدة تنتظر من يتصدى لها من بين صفوفنا .

● أنه حين تغلق أمامنا سبل الحل لمشكلة ما ، فليس معنى ذلك عجزنا عن التوصل إلى حل ، بل حاجتنا إلى مزيد من المعرفة بأساليب جديدة للعمل ، ومصادر أخرى للمعرفة الأفضل بحدود المشكلة .

● أن أى حل لمشلكة قد لا يتحقق دائماً نتيجة الدراسة المتأنية ، أو التى تستغرق زمنا ، بل يمكن أن يبزغ فجأة فى لحظة انشغالنا بأشياء أخرى بعيدة عنه تماما ، أو فى وقت الراحة من عناء التفكير فيه .. وقد عالجنا هذه النقطة فى المبحث

السابق .. لهذا نقول إنه ينبغى ألا نقلق إذا تأخرنا فى التوصل لحل ، وألا نتعجل بلوغه بصورة تستثير الإحباط والتوتر .

ويهتم العلماء بتنمية المقدرة الإبداعية لدى الإنسان العادى ، بما يمكن أن يستفيد منه فى يومه ، ويقدم أحد علماء النفس المرموقين ، أسلوبا بسيطاً يضمن به الإنسان العادى إذا اتبعه ، تنمية قدرته على التجديد والابتكار والإبداع .. يقول :

« عندما تستيقظ فى الصباح افتح الراديو على محطة إذاعة لم يسبق لك أن استمعت إليها لتستمع فيها إلى شىء جديد . واقرأ جريدة صباحية لم تعتد قراءتها كل يوم . عندما تهبط إلى الطريق اختر طريقاً جديداً تسلكه إلى محطة القطار أو محطة الأتوبيس يختلف عن الطريق الذى تسلكه كل يوم . راقب البيوت والناس الذين تلتقى بهم .. وأفحص واجهات المحلات الغريبة ، وافحص ما فى تلك الواجهات ، وعندما تركب الأتوبيس أو القطار حاول أن تتعرف على شخص لا تعرفه وتبادل معه حواراً تتعرف منه على طريقة تفكيره المختلفة » .

ولا ينسى خبير علم النفس أن يقول : « أحذر أن يعطلك هذا التجديد عن الوصول إلى عملك فى الموعد المحدد ... وفى عملك حاول أن تجد فكرة جديدة ، أو تعديلا لفكرة قديمة .. وهكذا .. وهكذا .. فتكتسب القدرة على الإبداع والتجديد والابتكار » .

الفصل الثامن

أمثلة من الحياة للنجاح والإبداع

من قاموس النجاح والإبداع

« الرجال السطحيون يؤمنون بالحظ ، والرجال الأقوياء يؤمنون بالسبب والنتيجة » .

«إمرسون»

« تعوّد الناس أن يلعنوا ظروف حياتهم ولست أؤمن بالظروف ، فالناس قد جاءوا إلى هذه الحياة ليبحثوا عن الظروف التى يحتاجون إليها ، فإذا لم يجدوها كان عليهم أن يخلقوها » ..

«برناردشو»

هناك عظيم جمع فى فكره المبدع بين المخيله والمعلومات الواسعة .. وجّه تفكيره توجيها رائعا .. فاخترع واستنبط وكتب وفتح للإنسانية بابا تطل منه على مجالات التقدم والنجاح والاستكشاف .

هذا المفكر العظيم سجل فى دفتره ، فى أول صفحة من صفحات يومياته هذه الأسئلة :

● ما الحياة ؟ ولِمَ الحياة ؟ ● مامعنى وجودنا ؟ ● ما الهدف والغاية ؟ ● كيف ينبغى أن أحيا ؟ ● ما الموت ؟ ● كيف أستطيع الخلاص ؟

وكان جوابه بعد صفحات كثيرة .. النضال فى سبيل التحقيق

لقد وضع الأسئلة .. ثم وضع المبدأ وعمل على تطبيقه .

وكتب بعد مئة صفحة أخرى :

« ليؤمن الإنسان بالخلود يجب أن يعيش حياة خالدة ! »

وكتب بعد مئة أخرى :

« لا يقترب الإنسان من خالقه إلا وحيداً »

وكتب بعد مئة أخرى :

« يموت الإنسان بيد أن وجوده يستمر فى ما فعل .. ويزداد قوة وفعاليه .. وتأثيره يمتد وينتشر بقدر ما كان عقله يمتد وحبه ينتشر .. وينمو ككل حياة ، ككل شىء حى دون توقف وإلى الأبد » .

كلمات عظيمة خطها يراع عظيم تدل على السمّو فى النظر ، ووضوح الرؤية ، ورفض كل ما هو غائم قاتم .

كان هذا المفكر العظيم صاحب مخيلة لا ينضب لها مَعين .. كان ملما إلماما لا نظير له بكل شيء قديم وحديث ... وكان يردد :

« أنا لا أعرف .. أنا جاهل بعد .. رغم أنه اشتهر بسعة اطلاعه وكثرة معارفة ومعلوماته ! لأنه يعرف أنه مهما أُوتى من معرفة ، فما زالت حاجته إلى المعرفة قائمة .. ولهذا لم تتساقط آماله الكبيرة على طريق حياته كما تتساقط أوراق الأشجار بل حقق هذه الآمال بصبر وجلد وشجاعة .. كما يجب أن تكون أنت .

إن عالمنا الذى نعيش فيه قيثارة كبيرة ، وكلنا أو تارها ، وتكمن فى هذه الأوتار نغمات جميلة ، وتنتظر هذه الأوتار من يحركها لتصدر أنغامها الحلوة ، ومن مجموع هذه الأنغام يخرج اللحن الرائع .. التفكير المُبْدع .. إذن فأنت ترى لحياتك غاية .

لقد خُلقت لدور تؤديه ، ودورك كامن فى موهبتك وميلك ، إن فيك إمكانيات خيّره طيبه بناءة . تعرّف عليها لتقوم بدورك الذى خُلقت من أجله . لا تقل إنك إنسان عادى . ثق أنك خُلقت وفى أعماقك قدرة إبداعية كامنة لذا وجب عليك أن تتغلغل فى أغوار نفسك وأن تستجلى بواطنها . إن فيك نبوغ كامن ينتظر منك أن تستثمره لتؤدى دورك .

انهض اليوم وقل إن العالم فى حاجة إلى لأضفى بهجة ونوراً وخيراً على هذا المكان الذى جئت إليه ولأسهم بقوة فى دفع عجلة التقدم فى هذه الدنيا بل إننى لبنه وُجدت لتأخذ مكانها فى هذا البناء الشامخ الجميل يقول : «رسكين» : « وجُدنا ليعمل كل منا ولنعمل جميعا ودائماً على رفع البناء – الذى كُلفنا بالعمل فيه إلى أعلى وأعلى ، إلى مستوى سماء القدرة البشرية » .

● وميلك لا ينضج ولا يصبح مقدرة إبداعية تنتج عملا رائعاً فريداً إن لم يتعرض لحرارة الخبرة والتجربة والممارسة ، والجهد العنيف المتواصل ، يقول «توماس جاى هدسون» : « وكما أن الحقل يجب أن يُحرث قبل أن تأخذ منه محصولا فكذلك يجب أن يُعدّ الميل ويجهّز » .

ولكن كيف تحكم على أن ما تمارسه من نشاط هو استثمارك لميلك الأصيل ؟ يقول الفيلسوف الانجليزى العظيم (برتراند راسل) : « هناك محك واحد لا يخطىء وهو أن تسأل نفسك – لو كنت تريد أن تصبح كاتبا مثلا – هل أكتب ما أكتبه لأنى استشعر حاجه ملحة إلى أن أعبّر عن بعض الأفكار والمشاعر أم لأننى طامع

فى انتزاع التصفيق وعبارات الاستحسان ؟ ذلك أن الرغبة فى انتزاع الاستحسان تكون عند الفنان الأصيل على شدتها وقوة بروزها شيئاً ثانويا ، بمعنى أن الفنان يريد أن يضع أثرًا ، وهو يرجو أن يحظى ذلك الأثر بالإعجاب ، ولكنه لا يغير أسلوبه ولو ضنّ عليه الجمهور بالثناء » .

وأخيراً .. لا تعترف بالفشل ، وتشبث بالنجاح تصبح سيد مصيرك ، ولن تحول قوة دون وصولك إلى ما تريد .

وإليك دستور النجاح فى الحياة كما وضعه مفكر مبدع هو الشاعر الفرنسى العبقرى «أندريه ريفوار» :

انطلق فى طريق الشوك شامخ الرأس ، عالى الجبهة ، مضموم القبضة ولا تتقهقر

احتـــرق كفاحـــاً ونضالا وعش إذا خاب أملك فاجعل من الخيبة حافزاً

وإذا وهن عزمك فاصنع من التعب سوطا وإذا انتابك اليأس فاخلق من اليأس ناراً

تضرم فيك شعلة الجنون ، وتلهب مثلك الأعلى

احتـرق ضعفـاً وقـوة وتعـذب احترق مرضا وصحـة وتغـلب

احترق تجربة وحكمة وتعـذب احترق ثقافـة ومعرفـة وتغـلب

احتـــرق إرادة وتحمـــلا وعش احترق تجلداً وتصلبـاً وتعـذب

احترق سعياً وراء الكمال المطلق وعش .. هذه هى الحياة

وهذا هو الطريق الذى سلكه من قبلك كل المفكرين المبدعين الناجحين .

□ مع جاك لندن .. اكتشف نفسك :

« إن كل شىء معدّ إذا كانت عقولنا كذلك »

«شكسبير»

من وهدة الفقر والتشرد إلى قمة المجد . كان متشرداً فى طفولته وكان حمالا وصياداً وقرصاناً فى شبابه ، استجدى ليأكل ، نام على مقاعد الحدائق العامه ، وفى الطرقات على الأرض الصلبة . وأخيراً ا كتشف نفسه وتعهد ميله بالرعاية ، وانتفع بخبراته ، فأبدع فكراً للإنسانية ، وجاءت كتبه تنبض بالحياة ، وأصبح أعظم كتّاب القرن العشرين .

لقد كان غير راضٍ عن حياته .. كان قلقا .. قام بأعمال كثيرة وقاسى كثيراً ، وأرهقته هذه الحياة التافهة الفاشلة فى سنى عمره الأولى ، وشعر أنها حمل ثقيل وطالما قال لنفسه (أهذه هى الحياة ، أن أعيش كأننى دابة عامله ؟!) .

والآن أراك تحمد الله لأن ظروفك أحسن بكثير من ظروف هذا الشريد الأفّاق وأسمعك تقول لم يكن هذا الشخص إلا حطام إنسان ، وهل يُرجى أن يكون مثل هذا القرصان شيئاً يذكر ؟! وأظن أنك لو التقيت بمثل هذا الإنسان لحكمت بأنه لن يكون إلا مجرماً خطيراً أو نزيل أحد السجون يمضى فيها بقية حياته!! وأنت محق فى ظنك هذا ، ليس لأنه انتهى إلى هذا المصير ، بل لأنه لابد أن يكونه لو لم يكتشف ميله الذى جعله ينطلق إلى الخير والمجد وأصبح من أعظم الأدباء ، وترك واحداً وخمسين مؤلفا كلها رائعة رغم أنه مات صغيراً فى سن الأربعين .

دخل ذات يوم إحدى المكتبات العامة يوم أن كان قرصاناً وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وقرأ كتاب «روبنض كروزو» ولم يترك الكتاب إلا بعد أن فرغ من قراءته كله ، وأخذ يتردد بعد ذلك على المكتبة بمدينة « **أوكلند** » وكان باستمرار أول الوافدين عليها فى الصباح ، وكان يقرأ ما بين عشر ساعات وخمس عشرة ساعة فى اليوم الواحد ، ولم يترك كتاباً لشكسبير أو هربرت سبنسر .. إلا وقرأه بالرغم من أنه لم يكن قد أتم دراسته الابتدائية .

وقد أحب البحر ومغامراته وأراد أن يرى العالم فسافر كبحار وهو فى السابعة عشرة من عمره على سفينه أعدت لصيد عجول البحر والتجول فى بحار اليابان وكوريا وسيبريا وعاد إلى سان فرنسيسكو وهو يتمنى أن يسكن ويستقر .

ووقعت فى يده صحيفة «سان فرنسيسكو كول» وكانت قد نظمت مباراة أدبية فاشترك فيها بموضوع وصف فيه إعصاراً كان قد هب عليه وهو فى السفينة أثناء صيد عجول البحر ، وفاز بالجائزة الأولى وقدرها ٢٥ ريالاً . وكان هذا الفوز هو نقطه التحول فى حياته ، واهتدى إلى ميله وصمم أن يثقف نفسه ، وحدد هدفه وهو أن يكون كاتباً قصصياً .

وصمم أن يلتحق بالجامعة ، ولكن كيف ذلك وهو لم يتم تعليمه الابتدائى ؟ والتحق وهو فى التاسعة عشرة بالسنة الأولى الثانوية وكان فقيراً معدماً رث الثياب منفوش الشعر .. وأصبح الأفاق القرصان طالبا ، وكان فى عطلة الأسبوع يحسن الحشائش بالحدائق نظير أجر ضئيل ، وينفض السجاجيد فى المكاتب ، ويتولى نقل الرسائل ، وكان بعد انصراف الطلبة من المدرسة يكنس الحجرات وينظف المراحيض .. وكان يقرأ تسع ساعات متواصلة .

وتقدم للجامعة ولكنه لم يبق بها إلا بضعة أشهر ثم تركها ليعول أمه وزوجها ..

وعزم ألا يعمل بيديه ، وصمم على حياته الأدبية فكان ينكب على الكتابه خمس عشرة ساعة يوما بعد يوم ، موصداً باب الحجرة ، مستغرقاً فى عمله لا يفكر فى شيء آخر حتى فى الأكل .

وكان يكتب أكثر من خمسة الآف كلمة يوميا ، ويبعث بما يكتبه إلى رؤساء التحرير فيعيدونه إليه . وباع كاتبنا الناشيء ثيابه ومضى فى الكتابه حتى أنفقت أسرته آخر ريال تملكه ، ونفد الطعام الذى فى البيت ، وخرج يطلب عملا ، واشتغل فى مغسله ، ثم سافر إلى (ألاسكا) بحثا عن الذهب ولم يجن شيئا من رحلته غير ما اكتسب من خبرات وما دونه من مشاهدات وخواطر .

وانكب على الكتابه بعد عودته من رحلته هذه ، ودفعه ميله الأصيل إلى الكتابة رغم أنه لم يفد منها شيئاً .. وكان يبعث إلى الناشرين ثلاثين قصة دفعة واحدة ولكنها كانت ترد إليه جميعها ، ولم تهّن له عزيمه ولم يثنه الفشل عن متابعة الكتابه وظل يكتب ولا يعمل شيئاً غير الكتابة .. وأصر على النجاح يدفعه إلى ذلك ميله .

وذات صباح أرسلت له مجلة (أوفرلند منثلى) رسالة تنبئه أن قصصه عن (ألاسكا) قد قبلت وستنشر ، وتلقى فى نفس اليوم رسالة من مجلة (بلاك كات) بها تحويل بمبلغ أربعين ريالا ، ونُشِرت قصصه فى خمس مجلات ، وكان وقتها لم يتعد الثالثة والعشرين ولم يكن قد مارس الكتابه إلا منذ تسعة شهور .

ونجح (جاك لندن) كإنسان عرف ميله ، واكتشف موهبته بعد عناء وبعد أن نضجت موهبته فى بوتقة التجارب العديدة . نجح جاك ككاتب لأنه كتب خبراته فى الحياة والكاتب الناجح هو الذى يعيش قبل أن يكتب .

وكان جاك لا يكتب إلا بعد أن يرى ويختبر ويمارس ما يريد أن يكتب عنه ، فقبل أن يكتب كتابه **« أهل الهوة »** خالط الفقراء فى حيهم فى شرق لندن ، وهو فى أوج مجده ، وذهب إلى دكان اشترى منه ثياباً قديمة وعاش بين أهل هذا الحى كواحد منهم فجاء الكتاب ينبض بحياتهم واعتُبِر أحسن ما كتب عن المحرومين من البشر .

ولما عزم على كتابة رواية **« ذئب البحر »** اشترى سفينه وخرج بها إلى البحر وعاد من رحلته هذه بعد أسبوع ثم عكف على الكتابه ووصفت الصحف هذه الرواية بأنها نتاج عبقرية مبتكرة نادرة ، وكان هذا هو كتابه العاشر فى أربع سنوات .

وكان جاك محاضراً مشهوراً بالإضافة إلى شهرته فى تأليف الرويات ، وكانت

الجماهير تعجب به لإخلاصه فيما يقول ولتجاربه الحية التى يقدمها لهم ، ولحماسته فى معالجة كل ما يختص بإصلاح المجتمع الذى يعيش فيه .

هذه قصة إنسان شرير ارتفع من وهدة الفقر والتشرد إلى قمة المجد ، وأصبح دخله من كتبه ضعف مرتب رئيس الجمهورية ، وقد أنجز للسينما قبل أن يموت بعام قصته « **ثلاثة قلوب** » لقاء خمسة وعشرين ألف ريال . وسجل فى مذكراته بعد كتابتها : (أتممت اليوم عامى الأربعين والكتاب الخمسين والسنة السادسة عشرة منذ أن بدأت الكتابة) .

وعندما مات فى ٢١ نوفمبر ١٩١٦ حزن العالم لموته ، وكتبت عنه الصحف فى العالم كله أكثر مما كتبته عن فرانسوا جوزيف امبراطور النمسا الذى توفى قبله بيوم واحد .

هذه قصة رجل عرف ميله ونماه وحدد هدفه فولد ولادة جديده ، وأصبح عظيما بعد أن كان قرصاناً أفاقاً . وقد بكاه الشعب هناك ، وحزن حزناً عميقا لموته ، وقالت عنه صحافة بلاده بعد وفاته (كفّوا عن الضحك فقد فقدنا جاك لندن) .

اكتشف ميلك . فهو الذى يدفعك إلى أعلى القمم ، ويحدد دورك الذى خُلقت لتؤديه فى هذه الحياة . واكتشاف ميلك الأصيل لا يكون إلا عن طريق الخبرات العديدة التى تمر بها فهى التى تعمل على بلورة هذه الميل وإظهاره وجذبه إلى السطح بعد أن كان يرقد فى الأعماق .. وعندما تصقل ميلك بالخبرات العديدة المتداخلة والمران المتواصل يصبح لك أسلوبك الخاص الذى يميزك عن غيرك .

ومما لاشك فيه أن أساليب الآخرين التى نكتسبها بالملاحظة والاندماج .والقراءة تفتق الذهن وتنضج القدرات الكامنة ولكن صاحب الميل الأصيل الذى يكتشف نفسه الحقيقية لا يقلد بل تفتح الخبرات المتكسبه عينه على كيانه الداخلى الفريد فيبرع ويبتكر شيئاً جديداً ، ويكون له طابعه الخاص الذى يميزه عن غيره ممن سبقوه فى نفس القدرة والكفاية .

اكتشف نفسك لتقوم بدورك الذى جئت من أجله إلى هذا العالم وتنجح فى حياتك .

مع بيرشل

معجزة أوقات الفراغ والتثقيف الذاتى

• إذا كنت تعرف ما تريد وانتفعت بلحظات الفراغ واستخدمت كل قواك

فلن توجد قوة تحول بينك وبين النجاح » ..

(ا . س . ماردن)

لا تثق فى خرافة الفرص الضائعة . إنها خدعة كبرى لا أساس لها فإن المستقبل لنا دائماً ما دمنا على قيد الحياة وكل منا يحمل فى أعماق نفسه قدرة كامنة تنتظر منه أن ينقب عنها ، ويتعهدها بالرعاية حتى تنمو وتثمر فتبدع . والفرصة أمامك تكمن دائماً فى إبراز هذا الميل الكامن واستغلاله .

كان (اليهى باريت) حداداً واستطاع أن يعلم نفسه أمام (كورة) واستطاع أن يحصل فى أربعة أعوام على مالم يحصل عليه خريجوا الجامعات فى كل حياتهم . كان يعمل طوال النهار ، يطرق الحديد أمام النار فى دكان الحدادة ولكنه تمكن من أن يدرس سبع لغات وحصل على الثقافة التى أرادها وأصبح من الممتازين النابهين فى عالم الأدب والعلم والمؤسسات الاقتصادية .

أليست ظروفك أحسن مما كانت عليه ظروف هذا الحداد ؟! إن رجالاً كثيرين قد حققوا أسمى الغايات بتثقيف أنفسهم بالرغم من ظروفهم السيئة التى اكتنفت حياتهم وحالت دون تعليمهم أو إرسالهم إلى الجامعات .

إذن الأمر يتوقف عليك أنت .

كم من طبيب فى العالم تخرجوا فى كليات الطب ؟.. قد تقول وما علاقة هذا بالتثقيف الذاتى وإردة النجاح ؟ إننى أسألك لأقول لك إن هذا المُبْدع الذى سأحدثك عنه الآن شخص لم تهيء له ظروفه أن يدرس الطب ، ولكنه أصبح مرجعاً للأطباء الذين تخرجوا فى أعظم الكليات وهو الذى لم يتعد مرحلة التعليم الثانوى . إنه ابن نجار فقير توفى والده وتركه يعول نفسه وهو فى السابعة عشرة من عمره فاشتغل فراشاً فى مكان يشبع ميله الكامن فى نفسه . اشتغل فراشاً فى (معهد نيويورك لأمراض العين والأذن) وأصبح هذا الفراش أكبر علماء العالم فى تشريح وباثولوجيا العين والأذن ، واستعان به أكبر الأخصائيين والجراحين فى العين والأذن .

رأى الفتى – وهو يمسح أرض معامل المعهد – الأخصائيين يعملون وأخذ يلاحظهم ، ويطيل الملاحظة .. ويدقق النظر ، وانتحل الأعذار ليبقى بحجة أنه يريد أن ينظف أرض المعامل بعد أن ينصرف الجميع إلى منازلهم ليلا . لقد أثمرت ملاحظته الواعية فأخذ يجرى نفس التجارب التى كان الأخصائيون يقومون بها نهاراً . وظل على هذا المنوال خمس سنوات ساهراً معظم ليله ، وهو لا يشعر بالجهد أو التعب لأنه لم يكن مدفوعاً بدافع من خارج نفسه إلى هذا العمل ، ولم يكن يسعى إلى

لقمة العيش وهو يعمله ، ولكن ميله الأصيل كان هو الدافع .

وكان لابد أن يقرأ فأخذ ينشىء لنفسه مكتبة بالتدريج من السنتات القليلة التى كان يتقاضاها نظير خدمته فى المعهد وكان يلتهم ما يقرأه .

وراح يبحث عن مصادر التعليم الطبى ، وعلم أخيراً أنه مباح لطلبه كلية الطب بجامعة كولومبيا الدخول إلى (قاعة سيمز للعمليات) ، فعزم أن يندس وسط الطلبة واستطاع أن يستمع إلى المحاضرات ويشهد العمليات . لم يندب حظه لأنه لم يتمكن من الالتحاق بإحدى كليات الطب . بل فكر فى الطريقة التى يشبع بها ميله وسعى دون يأس .. وكالعاشق الذى يتسلل إلى محبوبته مستهيناً بكل شىء تسلل هو أيضاً كطالب إلى حجرة العمليات وقاعة المحاضرات ولم يكن إلا فراشا يمسح وينظف الأرض ويشترى للموظفين لوازمهم .

وفحص الفتى بعض نماذج العين والأذن التى وردت من فرنسا للمعامل وأدخل عليها تحسينات تيسر للدراسين فحصها من الداخل ، وأعجبت نماذجه أساتذة التشريح فاشتروها واستعانوا بها فى الشرح للطلبة .

وعكف الفتى على دراسة العين والأذن ونبغ دون أن يحصل على مؤهل للطب وذاع صيته فاستعان به الجراح الأمريكى المشهور (جوف ويلز) فى إجراء عملية فى عين ملك سيام عام ١٩٣١ ولم يقم الجراح المشهور بإجراء العملية إلا بعد استشارة (بيرشل) موضوع حديثنا هذا والنموذج الحى لإرادة الإبداع الكامنة فى الميل .

وقال الطبيب والعالم النمسوى الشهير (هنريتش تومان) إنه لم يجر عملياته فى عيون ولى عهد إنجلترا ، ومارى ملكة رومانيا وألفونسو ملك أسبانيا إلا بعد أن اطلع على محتويات مكتبة (بيرشل) هذا .

وقال عنه أيضا : « لقد جمع بيرشل من المعلومات الخاصة بالعين والأذن فى مكتبته هذه أكثر مما جمع أى إنسان آخر منذ فجر الطب حتى الآن .. وكل جراح مهما كان نابغة لا يمكن أن يزداد نبوغاً ومهارة إلا بعد اطلاعه على هذه المجموعة الفريدة » .

ويلزم أن أحدثك عن مكتبة بيرشل بمناسبة ما ذكره العالم النمسوى عنها ، إنها أقيم مكتبة تشريحية فى العالم ، يحضر إليها أطباء وعلماء فى الطب من جميع أرجاء الدنيا . وهذه المكتبة مكونة من نماذج ٤٠٠ عظمة رأسيه وأكثر من مائة ألف قطاع من قطاعات العين التشريحية . إنه مجهود جبار أليس كذلك ؟! ... من رجل لم

يتخرج فى جامعة .. و لكنه عرف نفسه واكتشف ميله فسعى إليه ، وأينع الثمر .. فصار يغترف من علمه العلماء الذين تخرجوا فى أرق الجامعات رغم أنه لم يتعد التعليم الثانوى !! .

لقد مُنح الدكتوراه الفخرية فى العلوم عام ١٩٣٦ وأصبح فى عام ١٩٤٤ زميلا فى جمعية أخصائى العين والأذن الأمريكية . وقال عنه الدكتور (وليام بنيدكت) عميد عيادة مايو الأمريكية الشهيرة (إن هذه هى المرة الأولى فى تاريخ هذه الجمعية التى تمنح زمالتها لرجل عادى لم يتخرج فى جامعة) .

هذه هى قصة نجاح (إدجار بيرشل) أخصائى التشريح العالمى . قصة رجل خلق ظروفه ، وحقق هدفا لم يتمكن من تحقيق مثله شباب تخرجوا فى كليات الطب لأنهم قنعوا بأن يحصلوا على لقمة العيش التى يحلمون بها ، ولكن بيرشل عكف على تنمية ميله ، وتغلب على أكبر عقبة كان فى الإمكان أن تقف فى سبيله وهى أنه لم يدرس الطب فى كليات الطب ، ومع ذلك أصبح بيرشل مرجعاً لأشهر الأطباء العالميين ، وعرفه العالم ولم يعرف شيئاً عن مئات الألوف من الأطباء الذين كانت ظروفهم أحسن بكثير من ظروفه .

والآن ألا ترى أن برنارد شو كان محقا ومخلصا عندما قال : « .. يجب على الناس أن يبحثوا عن الظروف التى يحتاجون إليها ، فإن لم يجدوها فعليهم أن يخلقوها » ..

إن الإنسان الطامح لا تقف فى سبيله عقبه وقد قال بيتشر : « إذا كان للطموح زمان معين فهو فى الوقت العصيب الشاق » .

ما الفائدة من موهبة تحس بأنها كامنة فيك ولكنك تتركها مطمورة؟! يقول (ماردن) عن الذين يكمن فى أعماقهم جوهر أصيل لا يُستغل : « ما الفائدة أن تكون ذهباً ما دمت تبدو كالنحاس ؟! » .

فلا تجعل الذهب الذى صُنعت منه يبدو كأنه نحاس . مارس ميلك واستثمره . واخلق الظروف التى تصل بك إلى المجد الذى تريده كما فعل «بيرشل» فتفوق على طلبة كليات الطب فى أرق الجامعات ، وبذل كل جهده وتفكيره وأينع أفضل الثمر ..

مع أديسون ... استثمر نبوغك الكامن

« العبقرية واحد فى المائة إلهام وتسع وتسعون فى المائة عرق متصبب » .

«أديسون»

« إننا لا نحصد من حقل حياتنا إلا ما نبذره فيه » .

«إمرسون»

عندما كتبت أصول هذا الموضوع استعملت (الألة الكاتبة) على ضوء (المصباح الكهربائى) ولما تعبت بعض الشىء رأيت أن استمع إلى (الفونوغراف) أو (الراديو) ولكنى تذكرت أننى على موعد مع بعض الأصدقاء فى الضاحية المجاورة ، وفضّلت أن آخذ (السياره) بدلا من (الترام) لأصل إليهم واعتذر عن البقاء طويلا لأننى سأذهب إلى (السينا) لأحضر فيلما لا أحب أن تفوتنى رؤيته .

وأخيراً آثرت أن اعتذر لهم عن طريق (التليفون) وأ (التلغراف) ما دمت أنوى ألا أمضى معهم وقتا طويلا هناك .

والمفكر المبدع الذى أحدثك عنه هنا هو الذى مكننى أن استعمل كل هذه الوسائل المفيدة المريحة لأنه هو الذى اخترع بعضها وأسهم أو حسَّن فى البعض الآخر ..

هذا المبدع العظيم توماس أديسون ولد سنة ١٨٤٧ فى مدينة ميلانو بولاية أوهايو الأمريكية . لم يتعلم فى مدارس الدوله سوى ثلاثة شهور فقط ، وقال مدرسوه أنه لا يصلح للتعليم ..

و لم يعد الطفل إلى مدرسته بعد أن سمع هذا وعكفت أمه على تعليمه بنفسها فى المنزل ، وعرفت ميله وأخذت تنميه وأعدته ليكون مخترعاً عبقريا ، وما أن بلغ الحادية عشرة حتى كان يدرس مؤلفات نيوتن وشكسبير ، وكان يعرف أسماء عظماء المخترعين وفى قدرته أن يصف مخترعاتهم ، وبعضا من تجاربهم .

أحب القراءة وعكف عليها فأنضجته وصقلته ، وفتقت ذهنه ، ونّمت ميله . قال إنه قرأ أكثر من عشرة الآف كتاب .. ثم ذكر لنا سبب اختياره الأشتغال ببيع الصحف فقال (ابيع الصحف والمجلات فأكسب مالا ، كما أستطيع أن أطالعها كلها دون مقابل وإبان فراغى من العمل أستطيع أن أقرأ الكتب فى المكتبة العامة بدترويت) .

وجد أن القراءة وحدها لا تكفى فصمم على أن يقرأ ويعمل ، فأقام معملا يجرى فيه تجاربه فى المنزل وانطلق يشترى – بما كان يكسبه من بيع الصحف والحلوى والمأكولات – القوارير وفضلات السلك والرصاص وقصاصات من الزنك والنحاس والصفيح والمواد الكيمائية .

ولما لم يجد فسحة من الوقت يجرى فيها تجاربه فى المنزل لأنه لا يعود إليه من

عمله إلا فى ساعة متأخره من الليل صمم على أن يكون له معمل آخر بالقطار وأذن له الحارس .

وخطر لهذا الصبى الذى يبيع الصحف ويدرس فن التلغراف وهو فى الرابعة عشرة من عمره أن ينشر صحيفة أسبوعية ، فابتاع من أرباحه آلة طباعة صغيرة وبعض الحروف ، وكان هو جامع حروفها وطابعها ومحررها ومراسلها ومديرها وبائعها ، وقد أصدرها باسم (الويكلى هيرالد) وكان يبيع منها أربعمائة نسخة فى الشهر وتعتبر هذه أول صحيفة من نوعها تحرر وتطبع وتوزع فى القطار .

كانت حياته حافلة بالمغامرات والنكبات ولكنه شق طريقه فى شجاعة وإصرار مكافحا الفقر والعثرات .: يقول : « تعلمت من نكباتى المتعددة أن أكون مستعداً لكل أنواع الحظ السىء حينما أواجه مغامرة جديدة » .

حدث وهو يجرى بعض تجاربه بعربة القطار أن سقطت بعض المواد الكيميائية على أرض العربة فانفجرت ، واشتعل لهيبها وانتشرت النار بسرعة فى العربة ، فأسرع حارس القطار لإطفاء الحريق ، ولكمه لكمة عنيفة على أذنه ثم ألقى بزجاجاته وبآلة الطباعة وبه على رصيف أول محطة وقف بها القطار .. ووقف أديسون قليلا بين قواريره ا لتى كُسرت وتدفق ما بها ، وبين آلة الطباعة ثم جمع ما بقى صالحا للاستعمال وعاد إلى منزله ولم يثنه هذا عن عزمه وتصميمه على إجراء تجاربه فى معمله بالمنزل ، وأصدر العدد التالى من (الويكلى هيرالد) .

وكان قد تسبب عن اللكمة التى تلقاها من الحارس على أذنه أنه أصيب بالصمم ولكنه تقبل هذه العاهة دون تبرم واعتبرها بركة قال (إنها بركة ، لأن ضوضاء العالم لا تستطيع أن تعكر صفو أفكارى) .

ثم ترك العمل فى القطارات والتحق بوظيفة عامل تلغراف فى كندا بمرتب قدرة خمسة وعشرون دولاراً فى الشهر بينما كان ما يكسبه فى اليوم الواحد من أعماله السابقة أكثر من هذا المرتب الشهرى . إنه كان يسعى وراء الخبرة ويريد أن يشبع نهمه من هوايته لفـن التلغراف .

وظل أديسون ينتقل من مدينة إلى مدينة بين كندا والولايات المتحدة ، وبين أقصى الشمال وأقصى الجنوب يعانى شظف العيش والحرمان ولكنه لم يتخل عن هدفه ، وازداد تعمقا فى دراسته الحره لأنه صمم على أن يصل .

وشعر – وهو فى بوسطن وكان فى الحادية والعشرين من عمره وهو لا يزال يعمل فى البرق . أن فى إمكانه أن يخرج على الناس بإنتاج علمى بعد دراسته الطويلة

وتجاربه العديدة . قال : «لدى الكثير كى أقوم بأدائه والحياة قصيرة وإنى سأسرع فى العمل» ، وفعلا أسرع فى العمل فكان يعمل عشرين ساعة فى اليوم ولا يعبأ بالتعب وكان يقول لنفسه لابد أن أصل ولن أصل بدون جهد شاق عنيف .. وأخرج أديسون إلى حيز الوجود أول اختراع له وهو جهاز كهربائى لتسجيل الأصوات فى الانتخابات ، ولكن أحداً لم يشتر هذا الجهاز وخاب حلم أديسون ، ولكن خيبة الأمل هذه لم تثنه عن المضى فى طريق الاختراع والابتكار ، وتعلم من فشله ألا يشغل نفسه بإختراع إلا إذا كانت هناك حاجة ماسه إليه .

وقام أديسون باختراع آخر وهو أن يرسل إشارتين . برقيتين أو أكثر فى وقت واحد ، وكان السلك التلغرافى فى ذلك الوقت لا ينقل أكثر من رسالة برقية واحدة فى الوقت الواحد ، ثم عرض ابتكاره على شركة (الباسفيك البرقية) وسمحت له بإجراء تجربة على خطها التلغرافى ولكن عطلا حدث فى محطة الإرسال وفشلت التجربة وسحبت الشركة عرضها .. وكان أديسون فى ديونه لا عمل له يحصل منه على قوته ، وصمم أن يرحل إلى نيويورك ليبحث عن عمل يحصل منه على القوت .. وبعد ثلاثة أيام أتيحت له فرصة عظيمة عندما تقدم إلى مدير شركة (جولد انديكتير) يعرض عليه إصلاح الآلة الرئيسة التى تدير ثلاثمائة جهاز لتسجيل أسعار الذهب موزعة فى أنحاء نيويورك وكان قد عجز عن إصلاحها الفنيون ، وقام بإصلاحها فى ساعتين فعُيِّن مديراً فنيا للشركة بمرتب قدرة ثلاثمائة دولار فى الشهر . ولكن النقود لم تكن حلم نفسه وهدفه ، فعزم على أن يكون له عمل خاص به وكون «شركة للهندسة والكهرباء والتلغراف» وقام بإدخال عدة تسحينات تتصل بالتلغراف الكاتب ، ودفع له رئيس شركة «الوسترن يونيون» أربعين ألف دولار نظير تحسيناته وابتكاراته .

اتسع عمله سريعا وأصبح يستخدم خمسين ثم مائتين وخمسين من العمال يعملون فى معامله التى يجرى فيها تجاربه ليلا ونهاراً ، لم يعط لنفسه أية أجازه ، وكثيراً ما عمل أربعا وعشرين ساعة لم يغف فيها أكثر من نصف ساعة على مقعده فى مصنعه ، ولم يكن ينام عادة أكثر من ساعتين فى أعوامه الستين الأخيرة[1]، ووفد عليه كثير من المخترعين يطلبون عونه وإرشاده وهو الذى لم تتوافر له الدراسة المنتظمة مثلهم .

وعكف أديسون على اختراعاته فى معمله (للاختراع والتجارب العملية)

---

(١) ولد أديسون عام ١٨٤٧ م فى مدينة ميلانو بولاية أوهايو الأمريكية ، وتوفى عام ١٩٣١ م .

فاخترع الآلة التى تتكلم (الحاكى) ، وصنع منه أكثر من خمسين آلة ثم حطمها قبل أن ينتج منها آلة صالحة للعرض .. ثم قام بألوف التجارب التى لم ينجم عنها إلا الفشل الذريع فى استعمال التيار الكهربائى لأغراض الإضاءة فكان يلقى بنفسه على أريكة خشبية جامدة ليغفو بضع دقائق ثم يستيقظ بعد ذلك ليعمل بكل قوته وتفكيره واستمرت التجارب فى معمله ليل نهار حتى كُتب له النصر وتوصل إلى المصباح الكهربائى عام ١٨٧٩ م .

ثم أكب على عمله ليصنع الصورة المتحركة فساهم فى تطور كاميرات السينما ، ثم البطارية الجافة وقال (لست أدرى كم من التجارب قمنا بها قبل أن نصل بالبطارية إلى حد الكمال ولكن عددها لا يقل عن خمسين ألف تجربة استغرقت عشر سنوات وبلغت تكاليفها ثلاثة ملايين دولار !!) .. وساهم أديسون فى اختراع التليفون خصوصا أنه هو الذى اخترع الكاربون الذى ينقل الصوت . وساهم فى اختراع أجهزة التلغراف والآلة الكاتبة والميكروفونات .

عمل أديسون أكثر من اثنين وسبعين عاما فى معامله . ولقد أطلقوا عليه اسم (ساحر منلو مارك) ولقد سجل أكثر من ألف اختراع كرَّس لإنتاجها كل عمره بالعمل المتاصل ليلا ونهاراً . ولما سُئل عن أكثر الصفات ضرورة للنجاح فقال : « الخيال والطموح مع العزيمة والعمل » .

وسئل قبل وفاته بخمسة أعوام (متى تعتزل العمل ؟) فقال : (قبل الجنازه بيوم) .

قالت عنه زوجته : إذا ما ذهب بك التفكير فى أحد يعيش فى أقصى حالات النشوة والسرور فلا يرى شيئا ، ولا يسمع شيئا ، ولا يفكر فى شىء ولا يقوم بعمل شىء إلا فيما يتصل اتصالا مباشراً بما فى يده من عمل ، إذن فقد أوتيت صورة كاملة لزوجى .

كان يرهق نفسه إرهاقاً مميتاً ليستثمر نبوغه الكامن ، قال عن طريقته فى التفكير المبدع المبتكر : « إن طريقتى شبيهه بطريقة عالم النبات (بربانك) الذى كان يزرع فداناً من الأرض ، فإذا ازدهر يسير فيه يتخلل شجيراته وينظر فيها بعين نافذة ثم ينتقى من بين الآف الشجيرات التى أمامه واحدة يتوسم فيها تحقيق غايته ، ويظل فى تعهده لها بالرعاية حتى يعقد بذرها وعندئذ يستعمل ذكاءه وخبرته فى الاستكثار منها حتى يستنتج منها سلالة راقية .. إننى أنا أيضا أقوم بمئات بل آلاف التجارب التى ربما تسفر عن تجربة واحدة أتوسم فيها النجاح وعندئذ أتابع هذه التجربة حتى أبلغ نهايتها الممكنة» .

وقد قال عنه رئيس الولايات المتحدة (هوفر) عندما سمع نبأ وفاته :

« كان نسيج وحده فى العبقرية ، لقد نضه بعبقريته وجهده من صبى يبيع الصحف ومن عامل للبرق إلى مركز الصدارة والزعامة بين الرجال » .

تذكر وأنت تفكر لتبدع أن العبقرية جهد وعمل متواصل وأنها تسع وتسعون فى المائة عرق متصبب وواحد فى المائه إلهام .

مع هيلين كيلر .. سأنتزع مصيرى
(معجزة العقل الباطن)

« لا شىء يقف أمام إرادة قوية حتى الطبيعة ، حتى البشر ، حتى القدر » .

«جوستاف لوبون»

عمياء . صماء . بكماء . تؤلف الكتب وتستمتع بالموسيقى والسباحة والتجديف وركوب الخيل والدراجة وتمثل فى فيلم عن تاريخ حياتها ، وتصبح أشهر نساء العالم ..

قضى عليها أن تعيش فى عزله مظلمة يوسدها سكون الموت فقد أُصيبت بالعمى والصمم ، وفقدت القدرةعلى النطق وهى فى الشهر التاسع عشر من عمرها . فقدت أهم حواسها .. ومع ذلك فإنها لم تقبع فى زاوية ا لنسيان تئن وتتضجر ولم تستسلم لهذه الضربة القاسية المدمرة التى حلت بها ، بل وضعت حياتها فى قبضة يدها ، وبدأت تصوغها من جديد . كانت أتوجد فى أعماقها جذوه مشتعلة متأججة تصرخ طالبة أن تسمع وترى وتتكلم ، وهى تصف هذا فى كتابها الذى وضعته عن حياتها قائله «لاحظت أن والدتى وصديقاتى لا يستعملن الإشارات كما أفعل أنا ولكنهن يتكلمن بأفواههن ، وكنت فى بعض الأحيان أقف بين شخصين يتحدثان ألمس شفاههما فلا أفهم شيئاً فأثور . كنت أحرك شفتى وألوح بيدى ولكن دون جدوى . وكثيراً ما أثارنى هذا لدرجة أننى كنت أنهال ضربا برجلى على كل ما يعترضنى حتى تنهك قواى» .

كانت هيلين كيلر تريد أن ترى وتسمع وتتكلم كغيرها من الناس وأصبح هذا هدفها الذى تسعى إليه بكل قوتها .. وساعدها على هذا العزم والتصميم الذين عملوا على جعلها إنسانة نافعة .

وأمكنها أن تسمع عن طريق اللمس بأن تضع أصبعها السبابة على شفتى المتكلم

وأمكنها أن تفهم بهذه الطريقة من يتحدث معها كما لو كانت تسمعه ، وتمكنت من أن تدرك وتستمتع بالأنغام الموسيقية بأن تستشعر تموجاتها بوضع أناملها بخفة على الكمان أو البيانو أوالمذياع أو على حنجرة المغنية فتصل إليها الأنغام عن طريق اللمس كما لو كانت تسمعها عن طريق الأذن .

وبهذا خلقت (هيلين) مركزاً يستقبل التأثيرات الصوتية فى نهاية الأعصاب فى الجلد والعضلات واستعاضت به عن المركز المتصل بالأذن ، ولكنها لم تتمكن من هذا إلا بعد جهد ومران عنيفين كانا يستنفدان منها كل قوتها .

و لم تقف عند هذا الحد بل تعلمت أن تتهجى ولكن ليس بفهما بل بأصابعها ، وتصف لنا حياتها قبل أن تتمكن من التفاهم مع الناس فتقول : «كنت كسفينة فى ضباب كثيف قبل أن يبدأ تعليمى ، و لم يكن أمامى طريق يوصلنى إلى الشاطىء ، ولقد كان صباح روحى الصامت هو الضوء ، أعطنى الضوء يارب » .

وبدأت روحها تتيقظ فسارت نحو الهدف بقوة . تقول هيلين بعد أن وضعت مدرستها (مس سوليفان) يدها فى مجرى ماء ، وتهجت لها فى اليد الأخرى كلمة ماء (عرفت وقتئذ أن م . ا . ء . هو الشىء الرطب العجيب الذى كان ينساب على يدى ، وأيقظت هذه الكلمة الحية روحى ومنحتها نوراً وأملا وسروراً ، وحررتها من قيدها . وبينما كنا عائدين إلى المنزل بدا إلى أن كل شىء ألمسه فيه حياة ، وذلك لأننى بدأت أرى بالبصيرة العجيبة .. وتعلمت عدة كلمات جديدة فى ذلك اليوم ، وللمرة الأولى تاقت نفسى إلى مجىء يوم جديد) .

وقد تمكنت (هيلين) بهذه البصيرة العجيبة أن تدرك الألوان وقد كتبت فى هذا تقول : « .. أننى أشعر بجمال الألوان وبهجتها .. وقد يهمك أن تعرف كيف أدرك الألوان وكيف أفهمها ، فلا بأس أن أذكر لك هذا : إن اللون القرنفلى يجعلنى أفكر فى خدود الطفل أو فى نسيم الصبا العليل ، ويخيل إلى أن هناك نوعين من اللون الأحمر أحدهما لون الدم القانى فى جسم ممتلىء بالصحة والآخر حُمرة جهنم وحمرة الغضب ، وأنا أحب الأول لأنه رمز الحياة والنشاط . ويخطر لى أيضا أن اللون الأسمر على نوعين أحدهما لون تربة الأرض الخصبة المملوءة حياة ، والآخر أسمر قاتم كجزوع الأشجار الكبيرة التى ينخرها السوس ، أما اللون البرتقالى فإنه يبعث فى نفسى شعور بالبهجة والسرور لأنه لامع . ومتى اشتدت حرارة الشمس شممت رائحة تجعلنى أفكر فى اللون الأحمر ، ومتى لطف الجو خرجت رائحة تجعلنى أفكر فى اللون الأخضر » .

وقد علل هذا بانبعاث تموجات أثيرية دقيقة من المرئيات إلى العقل فيحس بها . وهكذا نرى أن إرادة الحياة والانتصار فى (هيلين كيلر) كانت قوية حتى تمكن عقلها أن يدرك اللون بغير حاسة النظرة ! .

واستمرت عدة سنوات تتعلم الهجاء فى يدها وتعلمت القراءة بطريقة (برايل) وأخذت تتعلم من الكتب بلمس الحروف البارزة ومن الحياة بلمس الأشياء والتفكير فى شكلها ، وتستمتع إلى الناس بلمس شفاههم والتحدث إليهم بالهجاء فى أيديهم . وكانت تبدو ودوماً مبتهجة واستمتعت .بأوقاتها أحسن استمتاع كمن له كل حواسة ، فقامت بالرحلات وتعلمت السباحة والتجديف ، واستمتعت بالطبيعة وقالت فى وصف إحدى جلساتها على شاطىء البحر : « كان هواء البحر النقى العليل كفكرة منعشة هادئة وكان للأصداف ونباتات البحر المغطاة بالكائنات الحية الصغيرة سحرها القوى فى نفسى » ثم تعلمت ركوب الخيل وتقول إنها كانت تمضى كثيراً من أسعد أوقاتها فوق صهوة جوادها .

لقد نسيت (هيلين) حياة الواقع المؤلمة وتطلعت إلى حياة أوفر .وأفضل وكان فى هذا طاقتها التى تدفعها إلى الأمام .. ورأت أنه فى إمكانها أن تدرب نفسها على الكلام وأشفق عليها أصدقاؤها خشية أن يحمطها الفشل خاصة وأن الأطباء قد أخفقوا فى علاجها وقالوا لا أمل فى النطق . ولكن (هيلين) صممت وهى واثقه أن عقدة لسانها ستحل تقول : « دوامت على استعمال شفتى بالرغم من أن بعض أصدقائى نصحونى .بحسن نية ألا أعمل هذا لأنهم خافوا على أن أفشل .. ولكننى صممت على بلوغ هذه الغاية» .. وتغلبت إرادة النجاح على العاهة ووقعت المعجزة ، ولكن بعد جهد عـنيف مضن وصفته قائلة :

« كنت أضطر إلى تكرار الكلمات والجمل بعض الأحيان لمدة عدة ساعات حتى أشعر بالرنة المضبوطة فى صوتى ، وكان سبيلى إلى الكلام هو المران والمران ثم المران وكثيراً ما أنهك هذا قواى ، ولكن فكرة مفرحة كانت دوما تدفعنى على المداومة والاستمرار » ، وكانت طريقتها فى محاولة النطق هى أن تضع أناملها على شفتى إنسان يتكلم أمامها ، وتضع أصابع يدها الأخرى على حنجرته لمعرفة حركات الفم والحنجرة ثم تحاول تقليد هذه الحركات لتتحدث نفس الصوت ..

حاولت كثيراً وكانت الأصوات التى تصدر عنها أولا لا تُفهم ، ولكنها لم تيأس بل كانت تعمد إلى زيادة التمرين حتى تعرف من سامعيها أنهم قد فهموا ما تنطق به وشعرت (هيلين) أنها استعاضت عن حواسها المفقودة وأنه فى إمكانها أن تتفاهم

وتتعلم كإنسانه عادية .. ثم بدأت تتعلم اللغات الفرنسية واللاتينية والألمانية فضلا عن الانجليزية .. فكان لها ما أرادت ، وعكفت على القراءة بنهم لا مثيل له ، قرأت تاريخ اليونان والرومان والولايات المتحدة .. ثم صممت أن تلتحق بكلية .. والتحقت (هيلين) بكمبردج وكانت مدرستها (مس سوليفان) ترافقها وسارت فى دراستها بتفوق عظيم ، ثم التحقت بعد نجاحها بدرجة الامتياز بكلية (راد كليف) وتقول عند التحاقها بهذه الكلية (كنت أعرف أنه ستعترضنى عقبات ، ولكن كانت لى رغبة قوية للتغلب عليها .. وأقبلت على دراستى بحماس ورأيت عالما جديداً يتفتح عن جمال ونور ، وأحسست بين جوانحى بشىء يدفعنى لالتهام كل معرفة ، وعزمت على أن أكون حرة فى رحاب العقل العجيبة كالأخريات اللاتى يبصرن ويسمعن) .

(وهيلين كيلر) قارئة نهمة ، قرأت أول قصة قراءة مستمرة دون توقف عندما كانت فى السابعة من عمرها ، ومنذ ذلك الوقت تنكب على أى كتاب يصل إلى متناول أصابعها ، وقد قرأت أمهات الكتب الخالدة فى لغاتها الأصلية : الإغريقية والفرنسية والألمانية والانجليزية التى تتقنها ، ويقول (ديل كاينجى) إنها قد قرأت مائة ضعف ما قرأه الرجل العادى المتوسط ، وتستمتع (هيلين) بقراءة كتب علم الفلك ، ويلذ لها أن تعرف الشىء الكثير عن نظام الكون وأسرار الحياة .

وقد ألفت سبعة كتب ، وكتبت قصة فيلم سينمائى عن حياتها ومثلت فيه ، وأحب مؤلفاتها إليها كتاب « **العالم الذى أعيش فيه** » لأنها شعرت بسعادة كبيرة فى كتابته ، وعبرت فيه عن كل خالجة من خوالج نفسها ، وهى تكتب كتبها ومقالاتها على آلة كاتبة تكتب حروفا بارزة ، وتُعدِّل فيما تكتب أو تصحح ما يقع فيه من أخطاء بدبوس شعرها بثقب الحروف على الورق .

وتستغل (هيلين) أوقات فراغها كما يستغله المبصرون تماما فهى تحب المشى وتقول عن ذلك فى كتابها « **قصة حياتى** » : (إننى أحب التجول فى المدن والريف .. وفى الريف أتخذ من الأرض الطيبه والزهور والأشجار أصدقاء لى وأقف على أسرار بعضها . والشىء الذى أميل إليه بعد المشى هو ركوب الدراجة . كم هو عظيم أن أشعر بالهواء يهب على وجهى ، إن اختراق الهواء بسرعة يعطينى شعوراً مبهجاً بالقوة والخفة .. وفى الأيام الممطرة التى أبقى فيها بالمنزل أسلى نفسى كما تتسلى الأخريات بشغل الإبرة والقراءة ولعب الورق) وهى مغرمة أيضاً بالسباحة والتجديف وركوب الخيل ولعب الشطرنج .

وتنزعم (هيلين) حركة إنسانية نبيلة وهى رياضة العُمْى والصّم والبكم على تعويض

ما فقدوه ، وإعدادهم ليكونوا مواطنين صالحين لهم حياة مثمرة .. وقد طافت بجميع أقطار أوروبا وزارت كثيراً من أقطار الشرق ، وألقت محاضرات فى كل ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية ، وزارت مصر عام ١٩٥٢ م وقالت عن الغرض من زيارتها لمصر والبلاد الشقيقة المجاورة أنها تريد أن تثير اهتمام الحكومات والهيئات للعناية بفاقدى البصر وغيرهم من ذوى العاهات . وتقول إنه ظلم صارخ أن تُعَد هذه الفئة من الناس للعمل اليدوى فقط ، لأن هذا وحده قد يقضى على كفايات كامنة عظيمة تنتظر من يساعد أصحابها على إبرازها ، وتوصى (هيلين كيلر) الآباء أيضا ألا ييأسوا إذا كان لهم طفل فقد إحدى حواسه ، وتستحثهم أن يعتنوا بتربيته أكثر من عنايتهم بتربية الأطفال العاديين ، وتطمئن الآباء على جدوى هذا المجهود الذى يبذلونه بقولها إن النقص الذى يشعر به صاحب العاهة يدفعه إلى أن يسير بقوة وعزيمة وإدراك ليستعيض عن حاسته المفقودة ، ثم تقول (يبرز من ذوى العاهات أناس ممتازون لهم قدرات عجيبة لو هُيئت لهم الظروف لجعل حياتهم مثمرة) .

إن حياه (هيلين كلير) التى أمكنها أن تصوغ نفسها وهى لا ترى ولا تسمع ، تبين لنامدى القدرة المعجزة التى تكمن فى أعماقنا فى العقل الباطن ، تلك القوة التى مكنتها أن تدرك الألوان بغير حاسة النظر وأعانتها على النطق بعد أن فشل الأطباء ، ومكنتها أن تتصور كل جمال فى العالم الخارجى دون سمع أو بصر . إن ثقتها فى النجاح وتفاؤلها وجهدها الجبار وفكرها المبدع الذى ألهمها به عقلها الباطن .. جعل من حياتها معجزة .

عقلك الباطن خادم مطيع ينفذ ما تأمره به ، خيراً كان أم شرًا ، دون أن يناقشك ، ويعينك على أن تصل إلى أعلى القمم كما ينزل بك إلى الحضيض ، والأمر يتوقف عليك أنت وعلى الصور التى تدسها فيه وتوحى إليه بتنفيذها ، فحاول أن تدس فيه أجمل الصور وأسماها ليعينك على أن تكون ساميا ويحقق لك ذاتك المثالية .. فتبرع فكراً يانعاً مثمراً ونجاحاً مستمراً فى حياتك ..

مع الطبيب الأمريكى ريتشارد وامبلر

وملاحظاته فى ريف مصر ... أرشميدس يعود من جديد

ارشميدس من الأوائل .. كان عالماً ومفكراً ورياضيا وفيلسوفا ومخترعا ، انكبّ هذا الفذ على أعماله وأبحاثه واستكشافاته مما تعتبر اليوم من الأسس التى بنى عليها كثير من المخترعات الحديثه عاش قبل ألفى سنة فى مدينة سيراكيوز بجزيرة صقلية .

وكان مواطنا صالحا حارب الرومان – أعداء وطنه – سنوات طويلة ، ولقد دمراً أسطولاً للعدو باختراع له .. ودمر أذولاً للرومان «بالمرايا المحرقة» .. لقد سلط على الأسطول الغازى المرايا المقعرة المصنوعة من الصفائح المعدنية تنعكس عليها الشمس ..

ويجب أن تعرف أن أرشميدس هو صاحب صيحة : وجدتها ، وهو الذى أخترع الطمبور .. كان هذا قبل ميلاد المسيح أى منذ ٢٢٧٣ سنة وهو عبارة عن دولاب خشبى مستطيل مفتوح من أعلاه وأسفله ، يطلق عليه العلماء (لولب أرشميدس) .

إذا وُضع طرف العلبة الخشبية مع العمود اللولبى داخل ماء النهر (الطمبور) ثم أدرت اليد العليا ، فإن العلبة والعمود اللولبى يدوران فيسحب اللولب الماء من النهر وينقله داخل العلبة إلى أعلى ، فيروى الأرض المرتفعة عن مستوى الماء فى النهر .

استخدم الفلاح المصرى القديم هذا الطمبور – ولا يزال – فى رفع المياه من النيل ودفعها إلى الأرض لترتوى ، واستمر النيل يهب الحياة لمصر بمعاونة اختراع (لولب أرشميدس) .

وظل هذا الطمبور يعمل فى مصر قرونا طويله ، مع احتفاظه بشكله اللولبى الذى أبدعه أرشميدس .

عندما زار مصر الطبيب الأمريكى من كاليفورنيا «ريتشارد وامبلر» عام ١٩٧٨ ، وقف طويلا أمام الأهرامات وشاهد المتحف المصرى واستمع إلى الصوت والضوء ، وزار الأقصر وشاهد معبد الكرنك .. ولكن الشىء الذى أثر فيه تأثيراً عظيما وتعلق بعقله لا يفارقه هو «الطمبور» أو «لولب أرشميدس» الذى كان لا زال الفلاح المصرى يستعمله فى صعيد مصر فى نقل المياه ورى الأرض الزراعية .

آثار اللولب خياله وشغل تفكيره ، وهنا التقت الحاجه مع الاختراع أو كما يقولون .. الحاجة أم الاختراع .

واخترع «وامبلر» جهازاً دقيقاً جداً يقوم على نفس الفكرة ويستطيع بجراحة صغيرة لا تستغرق أكثر من عشر دقائق أن يدخل طرف هذه المضخة فى البطين بالقلب ، فتقوم بضخ الدم من البطن إلى الأورطى الذى يوزع الدم على الجسم كله فيغذى أجزاءه بحاجتها من الدم .. تُستعمل مرة واحدة كالحقنه البلاستيك .. ويمكن تركيب هذه المضخة فى القلب دون الحاجة إلى جراحة كبيرة .

فى شهر مايو من عام ١٩٨٨ ، قام دكتور «هوارد فرايزر» ، مدير برنامج زرع الأعضاء بمعهد القلب بهيوستون بولاية تكساس باستعمال هذا الجهاز كان الرجل الذى أجرى له العملية قريبا جداً من الموت بعد أن تم زرع قلب مكان قلبه .. من

خلال فتحة فى عضلة الفخذ متصلة بأسفل البطن أدخل الجراح ماسورة دقيقة جداً — طولها ١٧ سم — دكَّلها فى أوردة المريض مثل الاستك باستدارة الوسط فى بنطلون البيجامه . هذه الماسورة متصلة بالمضخة الدقيقة حتى وصلت إلى بطين القلب .

وعن طريق سلك دقيق متصل بموتور صغير خارج الجسم ، بدأت المضخة تعمل (لولب أرشميدس) ، فقامت بعمل البطين المريض الضعيف الذى فقد القدرة على العمل .. وعملت المضخة بسرعة ٢٥ ألف لفة فى الدقيقه فامتصت المضخة سيلا غير متوقف من الدم من البطين إلى الأورطى ... ثم إلى أجزاء الجسم التى يقوم البطين بتزويدها بالدماء اللازمة ..

وخلال أيام تحسنت حالة المريض بعد أن استراح القلب المزروع ، واستعاد بعد الراحة قدرته على القيام بواجباته ، وبدأ القلب يدق دفات قوية دون تدخل الآلة ، وأُخرجت الآلة واستغنى عنها .

وأُطلق على هذه الآلة Hemopump ، أى مضخة الدم ، وهى آلة طولها سنتى ونصف وعرضها نصف سنتى ، صنعتها شركة تيمبكس الطبية فى كوردوفا بكاليفورنيا .

ويتوقع مديرو ومعاهد القلب التى أعترفت بقيمة هذا الاختراع أن تزود كل غرف الإنعاش ، ووحدات أمراض القلب بهذا الجهاز لاستخدامه فى كل حالات الإصابات القلبية .

ويتوقع الأطباء أن هذه المضحة يمكن استعمالها فى ١٥٠ ألف حالة من مرضى القلب كل عام . وسعر هذا الجهاز ٣٠٠٠ دولار ، وهو سعر رخيص جداً بالنسبة لهذا الجهاز النادر الوجود فى التكنولوجيا الطبية .

هذا هو الاختراع الحديث الذى تم عام ١٩٧٨ م ، واستخدم لأول مرة فى مايو ١٩٨٨ م .. وهو مبنى على اختراع قديم قديم صممه أرشميدس منذ ٢٢٧٣ عام .

وهكذا تأخذ العقول الخصبة طريقها إلى الفكر المبدع ، فتلاحظ ، وتصمم ، وتخترع وتبتكر وتفيد الإنسانية كما يجب أن تكون أنت ..

المراجع العربية

١ – التفكير عند الإنسان . د . أحمد فائق – دار القلم ١٩٦٥ .

٢ – التفكير فريضة إسلامية – الأستاذ عباس العقاد – دار الهلال .

٣ – الذكاء – آلان سارتون ترجمة د . محمود سيد رصاص – دار المعرفة ١٩٨٧ – دمشق .

٤ – عزيزى خليفه الله – الأستاذ أيهاب الأزهرى – مؤسسة الخليج العربى .

٥ – وجدتها – كتاب علمى للجميع : الأستاذ إيهاب الأزهرى – المركز المصرى للكتاب .

٦ – أتح لنفسك فرصة – جوردون بايرون تعريب عبد المنعم الزيادى – مكتبة الخانجى بالقاهرة .

٧ – أضواء على حياتك – كيف تقوى ذاكرتك – ترجمة الأستاذ صبحى الجيار – دار المعارف .

٨ – التفكير علم وفن – هنرى هازليت – ترجمة د . حامد عبد العزيز – الأنجلو المصرية – ١٩٧٥ م .

٩ – لماذا نقرأ – لطائفة من المفكرين – دار المعارف .

١٠ – فن التفكير : أرنست دمنيه ترجمة رشدى السيسى مراجعة مصطفى حبيب – مؤسسة سجل العرب ١٩٦٧ م

١١ – كيف نجحوا – ايليا حليم حنا – الناشر العربى .

١٢ – النجاح – دار الآفاق الجديدة – بيروت .

١٣ – الأذكياء للإمام ابن الجوزى – تحقيق عادل عبد المنعم – مكتبة القرآن .

١٤ – يقظه الفكر – للأستاذ توفيق الحكيم – مطبعة مكتبة الآداب – ١٩٨٦ م .

١٥ – أفكار فى القمة .. للأستاذ خالد محمد خالد مطبعة مخيمر .

١٦ – الدماغ والفكر – تشارلز فيرست – ترجمة د . محمود سيد رصاص – دار المعرفة – دمشق .

١٧ – تعليم التفكير : د . إدوار بونو ترجمة د . عادل عبد الكريم ، وأياد أحمد ملحم وتوفيق أحمد العمرى – مؤسسة الكويت للتقدم العلمى – الكويت .

□ المقالات :

١٨ - هل يمكن تنمية التفكير الإبداعى ؟ مبادىء وأساليب بقلم الدكتور : زين العابدين درويش - مجلة العربى العدد ٤١٢ مارس ١٩٩٣ م .

(Refereneces) المراجع الأجنبية

1) John Dewey, How we thrink, Bost D.C, tteath & Co, 1910 Vi 224 Rev. ed. (New york, Heath, 1933).

2) Wallas, G. The art of thought, C. patrick, watts, 1962.

3) Ogden CK & Richards, I. ATheMeaming of Meaming Routledge & K. paul, 1952 London.

4) Humphrey, G. the problem of the directian of the thought ,Bre J. Psychol, 1940, 30, 183- 196

5) Piaget, J., the Language and thought of the child, meredian Paperback, 1955.

6) Vinackc , W. A.The Psychology of thinking. Megraw- Hill, 1952.

7) J. S. Brwner et al-- Astudy of thinking, 1956, John Wiley& Sons Inc.

8) Humphrey, G. thinking, Methvan & co (ed), 1951. London.

9) Halloway, J. Language and intillegence, Macmilln, 1951 London

10) Whork B. Langauge , tho ught and reality, Wiley, 1956 pp. 65 & 134 & 246.

11) H. Werthmier, Productiue thinking 1945, Britain Tavistok Publication

12) Baldwin, J.M. thought and things S. Sanneschein, 1908- 1911, Londo

13) George, D. stoddord, The meaning of intelligonee, The Macmillan company, 1948, New York.

14) Stevens, S.S. (ed): Hand book of Experi mental psychology, Wiley, 1951, chapter (congenitive processes) entitlad by leeper.
15) David, H kantz: learning, Memory & thinking U. S. A. 1974.
16) William James, The principles of psychòlog U. S. A. 1980.
17) Hovland , C. I.: Computer stimulatiomof thinking, Amer. Psychol, 1960, 15, 687- 693
18) Frederic ,B.: Thinking, London, 1964.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
الفصل الأول : ماذا يعنى التفكير ؟	٩
ماذا يعنى التفكير ؟	١١
التفكير والشعور	١٢
سيطر على نفسك	١٣
قواعد لتنمية الإرادة	١٦
نظم أعمالك	١٧
راقب مخيلتك	١٩
وجّه تفكيرك	٢٠
الفصل الثانى : القراءة وفن التفكير	٢٣
القراءة غذاء الفكر	٢٥
كيف تجد وقتاً لتقرأ ؟	٢٩
الإدراك والمطالعة الناقدة	٣٢
كيف تقرأ لتفكر ؟	٣٢
الفصل الثالث : التفكير فــن	٣٧
التفكير فــن	٣٩
تدريب عقلى .. التفكير الواضح	٤١
طريقة تفكيرك .. كيف تفكر تفكيراً سليماً واضحاً	٤٢
التفكير الصامت	٤٣
تدوين الأفكار	٤٦
تعلم فن التفكير من ابنك الصغير	٤٧
أى سمات تميز المفكر	٤٨

الفصل الرابع : فن التفكير فى الإسلام ٥١
العقل فى القرآن الكريم ٥٣
العقل فى السُّنة النبوية ٥٦
التفكير المبدع فى أبحاث مثمرة عن الوضوء والصلاة ٥٧
الفن الجميل ٦٠
التفكير يوجب الإسلام .. والإسلام يوجب التفكير ٦٢
الفصل الخامس : أعداء التفكير والنجاح ٦٧
أعداء التفكير والنجاح ٦٩
١ – الانحصار الفكرى أو عُقد النقص ٦٩
٢ – كيف تنشأ الطفيليات العقلية ؟ ٧١
(أ) المحاكاة والمعاشرة ٧١
(ب) التعليم فى المدارس ٧٣
للمعلّم نقاط على طريق الإبداع ٧٧
٣ – آفة الجدل .. المحادثات الفارغة والثرثرة ٧٨
٤ – الأحلام واضطراب العقل ٧٩
٥ – اللهــو ٨٠
٦ – وقت الفراغ ٨١
٧ – السنون الحاسمة ٨٢
الفصل السادس : أصدقاء التفكير والنجاح ٨٣
أهمية تدريب الذاكرة ٨٥
كيف تقوى ذاكرتك ٨٦
ذاكرتك أثناء النوم ٨٧
كيف تقرأ بطريقة أفضل وتتذكر بدون تعب ؟ ٨٨
مساعدات إضافية للذاكرة ٨٩
الغذاء الجيد ضرورى لتقوية ذاكرتك ٩٠
قليل من التنفس الصحيح ٩٣
التركيز الذهنى ٩٥

قدراتك على الانتباه والتركيز يمكن تنميتها ٩٦
كيف تستذكر دروسك وتتفوق ١٠٠
للنجاح فلسفة ١٠١
أفكار فى القمة على طريق النجاح والتفوق ١٠٢
التسامى الخلقى شرط من شروط التفكير الرفيع ١٠٦
الأفكار الرفيعة بين طيات الكتب ١٠٨
الملاحظة ١١٠

الفصل السابع : النجاح والإبداع ١١٥
(أ) معنى الإبداع أو العبقرية ١١٧
(ب) أصل الإبداع : الأفكار ١١٨
(ج) كيف نستطيع التوصل لآرائنا الخاصة ١١٩
(د) كن فى إهابك ١٢٠
(هـ) التمس نفسك ١٢٢
أعظم القواعد العملية للنجاح فى الحياة وتحقيق التفكير المبدع ١٢٣
كيف تنمى قدرتك على الإبداع ١٢٦

الفصل الثامن : أمثلة من الحياة للنجاح والإبداع ١٢٩
من قاموس النجاح والإبداع ١٣١
مع جاك لندن اكتشف نفسك ١٣٣
مع بيرشل معجزة أوقات الفراغ والتثقيف الذاتى ١٣٦
مع أديسون استثمر نبوغك الكامن ١٣٩
مع هيلين كيلر .. سأنتزع مصيرى ١٤٤
مع الطبيب الأمريكى ريتشارد وامبلر وملاحظاته فى ريف مصر ١٤٨
المراجع العربية ١٥١
المراجع الأجنبية ١٥٢
الفهـرس ١٥٥

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٩٤٤/ ١٩٩٤

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١